الكتاب الأول

الغفران : دراسة نقدية

مدخل ومقدمات :

الباب الأول : دراسات حول النص :

١ – ابن القارح ورسالته .

٢ – أبو العلاء ورسالته .

٣ – لِمَ أمليت الرسالة ؟ ومتى ؟ وأين ؟

٤ – الحياة العامة عصر الغفران .

الباب الثانى : دراسات فى النص :

١ – مادة الرسالة وأسلوبها .

٢ – المعالم الكبرى للنص :

– مقدمة الغفران .

– القسم الأول : الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر .

– القسم الثانى : الرد على ما فى رسالة ابن القارح عن :

الزندقة – المسائل اللغوية ، والقضايا النقدية .

الباب الثالث : دراسات مقارنة :

دليل ومدخل : الغفران عند القدامى والمحدثين .

المبحث الأول : رسالة الغفران فى النثر الفنى لأبى العلاء .

المبحث الثانى : الغفران فى فنون النثر العربى .

فى قراءتى الأولى ، وفى قراءة جديدة .

المبحث الثالث : رسالة الغفران ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى .

المبحث الرابع : رسالة الغفران فى الأدب الأوروبى المقارن .

الغفران ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى .

الغفران فى الأدب الأوروبى المقارن .

١ – الغفران والجنة الضائعة للشاعر الانجليزى « مِلْتن » .

٢ – الغفران والكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالى « دانتى » .

مدخل ومقدمات :

اعتمدت فيما أقدم هنا من دراسات فى الغفران ، على النص الذى حققتُه للرسالة ، ونشرته دار المعارف فى طبعات الذخائر من عام ١٩٥٠م ، ثم توالت طبعاته ، إلى الثامنة منها سنة ١٩٩٠م ، مع نص محقق من رسالة ابن القارح .

* * *

وقد اشتهرت رسالة الغفران من قديم بين آثار أبى العلاء ، فذكرها مترجموه مع رسائله الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وربما خصوها دون بقية الرسائل ، بإشارة إلى موضوعها أو حكمٍ بها على عقيدته ، على ما سوف نستوفيه بيانًا فى الباب الثالث من هذه الدراسة .

لكن نص الرسالة ، فيما أُعلم ، لم يُعرف على صورة ما ، حتى شهر يوليو عام ١٨٩٩م ، حين نشر المستشرق الإنجليزى « نيكلسون » فى (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية J.R.A.S.) أنه ظفر بمخطوطات عربية أهمها رسالة الغفران ، كانت فى حوزة المستشرق شكسبير ، I.Shakespeare .

ثم قدم نيكلسون فى عام ١٩٠٠م ، وصفًا للمخطوط وترجمة ملخصة للقسم الأول من الرسالة ، مع الأصل العربى لكثير من فقراته وأشعاره . وفى عام ١٩٠٢م تابع نيكلسون نشر ملخص للقسم الثانى مترجمًا ، مع الأصل العربى .

وكان ما نشره نيكلسون من رسالة الغفران ، هو فيما أرجح النص الذى رجع إليه المستشرق الأسبانى « القس ميجيل أسين بلاثيوس : M. Asin Palacios» فى دراسته لرسالة الغفران مع أصول إسلامية غيرها ، رآها مصدرًا لكوميديا دانتى الإلهية ، وسوف نعرض بمشيئة الله لما يتصل بالغفران من كتاب بلاثيوس ، فى الدراسات المقارنة .

* * *

وفى عام ١٩٠٣م ، وهو العام التالى لما نشر نيكلسون من نسخته ، نشرت مكتبة أمين هندية بالقاهرة رسالة الغفران ، فى طبعة غير محققة . وجاء على غلافها أنها نُقلت عن نسختين خطيتين بدار الكتب لم يُعرّف بهما الناشر ، ثم ظهر بعد البحث أن فى دار الكتب أربع نسخ خطية للغفران ، منها نسختان بمكتبة تيمور .

وقد كانت طبعة هندية ، هى التى بين أيدى الدارسين العرب ، ومنهم الأستاذ الدكتور طه حسين – وفيها قرأناها عليه فى السنة الثالثة امتياز بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة

سنة ١٩٣٨ م – الذى كتب عن الغفران بضع فقرات قصار ، فى رسالته عن (ذكرى أبى العلاء) .

ثم نشرت دار المعارف كتابًا فى نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، بعنوان « رسالة الغفران: شرح كامل كيلانى » والنص فيه محرف مبتور ، وقد أضيف إليه مايقرب من أربعمائة صفحة ليست من الغفران أصلاً ، وإنما هى مختارات من آثار لأبى العلاء وآثار أخرى لغيره.

وكنا نقرأ النص فى طبعة هندية أو مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، فيتعثر فى أيدينا ممزق السياق ، غامض الإشارات ، مبهم الدلالات ، فصدقنا ما قيل عن تعقيده وإلغازه ، وأن « أبا العلاء قصد عمدًا إلى أن يقيم بيننا وبين رسالة الغفران الحجب والأرصاد ، كيلاً نطلع على خفى سرِّه وباطن أمره » ! .

وحين ظهرت لى الحاجة إلى تحقيق نص رسالة الغفران ليكون أساسًا لدراستها دراسة نقدية علمية ، بحثنا عن النسخ الخطية للرسالة ، فوجدنا أربعًا منها فى دار الكتب بالقاهرة ، ونسخة خامسة كانت مدفونة فى مكتبة سوهاج ، مكتوب عليها « فى علم الأدب ، مجهول اسمه واسم المؤلف » ، كما عثرنا بعد ذلك على نسخة أصل من رسالة ابن القارح – مفتاح فهم الغفران – فى مكتبة جامعة الإسكندرية ، بعنوان : « كتاب فى الأدب ، نادر الوجود جدًّا ، لعلى بن منصور ، ابن القارح رحمه الله » .

وبفحص نسخ الغفران لم نجد بينها نسخة أصلاً يتصل نسبها بأبى العلاء . وكان المستشرق الألمانى « بروكلمان » قد أشار فى ترجمته لأبى العلاء فى (تاريخ الأدب العربى) إلى وجود نسخة خطية من الغفران فى مكتبة كوبريللى زاده بإستانبول ، فلما ظفرت بمصورة منها – على ميكروفيلم – وفحصناها ، ألفيناها نسخة أصيلة متصلة النسب بأبى العلاء عن طريق تلميذه الخطيب التبريزى ، وبمقابلة هذه النسخة على كل ما عثرنا عليه من مخطوطات الغفران ، رجحنا أنها نسخة أصل[1] .

وعلى نسخة كوبريللى اعتمدت فى توثيق النص وتحقيقه ، ثم فى إقامة هذه الدراسة عليه ، مقابلاً على نص رسالة ابن القارح مفتاح فهم الغفران .

وسيرى القارئ فيما نقدم من دراسة للغفران ، أن ما شاع فينا من أحكام نقدية خاطئة عليها ، شكلاً ومضمونًا ، إنما يرجع أصلاً إلى غيبة نص محقق منها للرسالة ، وإلى ما فات الدارسين من ضرورة قراءتها مقابَلة فقرة فقرة على رسالة ابن القارح التى يستحيل بدونها إقامة نص الغفران وتوجيه سياق عباراته ، ولمح مغزاه ودلالاته .

* * *

(١) يجد القارئ بين يدى رسالة الغفران فى طبعة الذخائر ، بيانًا لمراحل توثيق النص وتحقيقه ، ووصفًا لكل النسخ الخطية المشار إليها هنا .

مقدمات :

من مقدمة الطبعة الأولى

كان الجيلُ الذى قبلنا يرى فى التفرغ لدراسة عَلَم من أعلام تاريخنا الأدبى نوعًا من التخصص غير الذى عرفه الذين تناولوا هذا التاريخَ كلّه جملة ، أو عرضوا (أدب العالم) أجمع – القديم والوسيط والحديث والمعاصر – بين دفتى كتاب .

اليوم نتناول بالدرس المتخصص كتابًا واحدًا من كتب « أبى العلاء » .

ويأتى جيلٌ بعدنا ، يمضى فى التخصص إلى مدًى أبعد مما وصلنا إليه ، فيخص كلَّ موضوع من الموضوعات الكبرى فى (الغفران) بدرس مفرد مستقل .

* * *

وكان الأصل أن يُطبع هذا البحث مرفقًا بنص (رسالة الغفران) ؛ إذ يشق على القارئ أن يمضى فى مطالعة بحث عن كتاب ، فى غيبة الكتاب نفسه الذى هو موضوع الدرس .

لكنى اضطررت – حين أعوزنى نص أصيل محقق لرسالة الغفران – أن أبدأ بتحقيقها وأفرغ أولا من نشرها ، كى أقيم عليها دراسة منهجية .

واستغرق ذلك التحقيق وحده ، سبع سنين دأبًا ، استطعتُ بعدها أن أشتغل بدراسة الغفران ، فتبين لى من البداية ، ألاَّ سبيل إلى قراءة رسالة الغفران فى غيبة (رسالة ابن القارح) مفتاح فهمها . فتمهلت ريثما حققت نص رسالة ابن القارح .

وكل ما أُوصى به من يشاء قراءة هذا الدرس ، أن يكون النصُّ المحقق للغفران بين يديه دليلاً ومرجعًا مع رسالة ابن القارح فى النص المحقق الذى صدّرتُ به طبعات الذخائر لرسالة الغفران ، من الثالثة فما بعدها . وعلى الله قصدُ السبيل .

* * *

من مقدمة الطبعة الثانية

أسعدنى أن تتاح لى الفرصة لأعود فأصحب أبا العلاء فى عالمه الخاص الذى أبدعه فى هذا الأثر الفريد .

والحق أنى ما انصرفت قط عن أبى العلاء بعد أن انتهيت من صحبتى له التى بدأتْ فى قسم الامتياز لدرجة الليسانس بقراءة « رسالة الغفران ، والفصول والغايات » ، ثم فى الماجستير بدراسة « الحياة الإنسانية عند أبى العلاء » ، ثم فى الدكتوراه بتحقيق نص الغفران ودرسه دراسة نقدية . هذه الصحبة الطويلة لأبى العلاء ، جعلته أقرب أدباء العربية إلىّ وأعزهم علىّ ، فلم تنقطع صلتى به وأنا أشتغل بالتدريس فى الجامعة ، ولم يغب عنى ذكره فيما أعالج من قضايا أدبية ، فى مقالات وبحوث أو محاضرات .

لكن هذه الفرصة التى أتاحها لى طبع « الغفران » للمرة الثانية ، ردّتنى إلى عالَم أبى العلاء الخالص ، وهيأتْ لى أن أفرغ لتدبر هذا النص ، بعد سنين من النضج والتجربة ، ومن المشاركة فى الحياة الأدبية والاتصال بها فى مجالها المتخصص بالجامعة ، وفى مجالها الأدبى العام . فما غيرّت هذه السنوات من رأيى الأول فى « رسالة الغفران » ، بل زادتنى تقديرًا لهذا الأثر الأدبى الفريد ، وفهمًا له .

لقد أنجزت هذه الدراسة النقدية للغفران ، قبل أن تضج حياتنا الأدبية بقضية الفن والمجتمع ، وحرية الفن ، وعزلة الأديب .. وقبل أن ترتفع فى أفقنا صيحات عالية ، تدعو ، إلى إعادة النظر فى القيم الأدبية التى ورثناها من عصور خَلت ، وفى أقدارِ الأدباء ومنازلهم التى حددها نقادُ سلفوا ، وما نزال نرددها حتى اليوم .

وإذ أعود اليوم إلى « رسالة الغفران » أجد فيها ما يضىء لنا سبيل الفهم المتحرر لكثير من هذه القضايا التى تشغل أدبنا المعاصر :

ففى قضية الالتزام الأدبى بقضايا المجتمع : يقدم لنا « أبو العلاء » مثلاً صادقًا لجبرية الالتزام الذى تقضى به طبيعة الأديب ، من حيث كونهُ وجدان المجتمع ، والعدسة النقية الصافية ، لتلقى أحداث الحياة وأوضاع الدنيا ، ولم يكن فى عصر « أبى العلاء » دعاة ينادون بالأدب الهادف ، وإنما تصدى أبو العلاء بإنسانيته المصفّاة ووجدانه الملهم المرهف ، لحمل الأمانة الصعبة ، دون حاجة إلى من يحمله عليها أو يلزمه بها ، فى زمانٍ محكوم بفردية طاغية ومجتمع طبقى متصدع ، حيث لا مجال للتداعى بحق الجماعة ، ورسالة الأديب .

وفى قضية عزلة الأديب فى الأبراج العاجية : يصحح « أبو العلاء » فكرتنا عنها ، حين

يقدم لنا فى آثاره ، نماذج حيّة لأديب يعيش فى أبراج من فولاذ لا من زجاج أو عاج : امتحنه القدر بالعمى صبيًّا ، فعزله عن الدنيا والناس ، ثم انسحب من المعترك شابًّا ، فلزم داره فى معرة النعمان نحوًا من نصف قرن . لكن هذه الحواجز الفولاذية لم تعزل وجدانه ، ولم تسدل الغطاء على بصيرته ، بل لعلها أعانته على أن ينصرف إلى تأملاته ويجد نفسه ، فجاءت آثاره شاهدة بأنه البصير الذى خَبَرَ الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى أذقانهم فى خِضمِّها ، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما يخضها الضاربون فى غمارها .

ورسالة « الغفران » بصفة خاصة ، تسجل صدى انفعاله بالدنيا وتجربة عزلته عنها ، وإنسانية معاناته للحياة ، وبينه وبينها كثيف الحجب والأستار ، فما كانت رحلته العجيبة فى رؤيا يقظته ، إلى العالم الآخر ، إلا انسحابًا وجدانيًّا من دنيا لم يرض « أبو العلاء » عن أوضاعها ، واحتجاجًا أدبيًا على مقاييس لها وموازين ضالة منحرفة ، فراح يرسم صورة أخرى لعالمه الآخر كما تمثله فى رؤاه .

ومن وراء محبسيه .. خرجت الصورة حافلة بأشواق البشرية وهمومها ، ومواجعها ومخاوفها ، وهواجسها فى وجدان أديب شاعر إنسان .

وماذا عن حرية الأديب التى تضح بها دنيانا اليوم ؟

من وراء عشرة قرون أو نحوٍ منها ، يُطِلّ علينا « أبو العلاء » ، فنرى فيه الأديب الحر الذى اشترى بالدنيا وما فيها حرية الضمير وشرفَ الكلمة وشجاعة الرأى ! لقد أراد فى مستهل شبابه أن يخوض معركة الوجود ويشارك فى سباق الدنيا ، مطمئنًّا إلى ما يملك من سلاح الفطنة والذكاء ، والموهبة والعلم ، لكنه لم يكد يدخل المعترك حتى أدرك أنه فى حاجة إلى بضاعة أخرى غير هذه التى يملكها ، وأدرك أنْ لا مكان له فى دنيا الناس وقد أعوزه عمى البصيرة وبلادة الحس والضمير ، ومرونة فى الخُلق والطبع يتلوَّن بها فى موكب المهرجين .

وانسحب من السباق متنازلاً عمَّا يطيق الاستغناء عنه ، لتسلم له كرامته وحريته ، ومبتدئًا معركة جديدة نبيلة ، يروض فيها بشريته على أقسى ألوان الحرمان ، محققًا بسلوكه العملى كلمة قالها « الشنفرى » الشاعر الجاهلى الصعلوك ، من قديم الزمان :

أُدِيمُ مِطالَ الجوعِ حتى أُمِيتَه ... وأُصرِفُ عنه الذكرَ صفحًا فأذهلُ
وأَسْتَفُّ تربَ الأرض كيلا يرى له ... علىّ من الفضل ، امرؤ متفضلُ

والذين يتصورون أن انسحابه من بغداد كان هينًا عليه لزهد فى طبيعته ، أو يزعمون أنه صَدَّ عن الدنيا منذ نفض يديه منها واستراح ، يجدون فى « رسالة الغفران » بوجه خاص ، ما ينفى هذا الزعم ، فلقد أملى هذه الرسالة وهو فى الستين من عمره ، بعد أن أمضى فى عزلته ما يقرب من ربع قرن ، فكشف فيها الحجاب عن أشواقٍ مكبوتة ، تؤكد أنه لم

يسترح قط من حب الدنيا ، ولا نفض يديه منها فى اللحظة التى قرر فيها الانسحاب إلى محبسه .

ثم كانت ذروة المأساة ، حين فرغ من تصوّر جنته وناره ، وارتد من أحلام يقظته ، إلى واقعه المر الأليم ، فسجل فى القسم الثانى من الرسالة اعترافه الصادق المؤثر :

« قد كدت ألحق برهطِ العدم ، من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار .. » .

كما سجل فى « الفصول والغايات » تفكيره فى الانتحار ، وحدّد طريقته فى قوله : « لو أمِنْتُ التبِعةَ لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب .. لكنما أرهب غوائلِ السبيل » .

لم يكن أبو العلاء ، إذن ، راضيًا عن بلواه ، ولا فرض على نفسه الحرمانَ عن تفلسف أو تكلفِ زهدٍ فى الدنيا ، وإنما أصر فى بسالة تقرب من الاستشهاد ، على المقاومة والمجاهدة حتى أراحه الموت من عذابه ، ليبقى ملء الحياة : الإنسانَ الذى اشترى كرامته بالدنيا ، والأديب المفكر الذى أصدر على بشريته أقسى قرار بالحرمان ، ليستطيع أن يقول كلمة الحق ، فى دنيا أذل الحرصُ فيها أعناقَ الرجال .

وهذه هى رسالة الغفران بين أيدينا ، يشهد القسم الأول منها بما ظل الرجل يكابد فى نضاله مع بشريته ، ويعلن فى القسم الثانى ، صيحة الاحتجاج على المنافقين والمرائين ، والنفعيين ، من الذين استغلوا جهل العوام ، فجعلوا الدين والعلم والأدب مصيدة رزقٍ غيرِ حلال .

* * *

فإليه أقدم هذه الطبعة المحررة للغفران ، بمزيد من التقدير والإجلال ، لأديب العربية الأكبر الذى استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية ، والذى يستطيع اليوم ، وغدًا ، أن يعلمنا رسالة الأديب المفكر الحر ، وأمانة الفن ، وشرف الكلمة .

من مقدمة الطبعة الثالثة

مع رسالة الغفران ، أصحب شاعرى أبا العلاء هذه المرة ، وقد كُشِفت لىَ الحجبُ عن مأساة الإنسان ، وأرهف إحساسى بها موقفهُ على الجسر المعلق ما بين الحياة والموت .

فى هذا الموقف ، يعمق إدراكى لرسالة الغفران ، من حيث هى أثر فريد فى أدبنا ، يطل به أبو العلاء من الدنيا على الآخرة ، ويغذ السير بتأملاته ، إلى عالم بعيد يُفرغ فيه شحنة همومه وهواجسه ، وأشواقه ومخاوفه .

ولئن كان تشخيص أبى العلاء لأحلامه ورؤاه ، على هذا النحو من التجسيم والإحضار ، يجلو لنا بعض همومه وهواجسه ، إنه ليمنحنا كذلك فرصة الانطلاق برؤانا إلى حيث نلتقى فى عالمنا الآخر بمن نحب ، أو ننقله إلى دنيانا بكل ما نملك من طاقة ذهنية ونفسية على اقتحام السدود وتخطى الحواجز ، والإيغال فيما وراء أبعاد المنظور وحدود الواقع ، حيث يتراءى لنا عالمنا الآخر مشحونًا بما يموج به عالمنا النفسى من أشجان ومواجد ومواجع ، وهواجس وظنون .

* * *

ومن صميم معاناتى لمثل هذه التجربة ، ألتفت لأول مرة ، منذ قرأت رسالة الغفران ، إلى ملحظ فاتنى أن أفطن له من قبل ، وهو أن أبا العلاء فى تمثله لعالمه الآخر وإحضاره إياه ، قد صَرَف عن مسرح الغفران شخوصَ أحبابهِ الذين أنِس إليهم فى حياته ، وأخص بالذكر منهم ، أمه الغالية التى فقدها فى المرحلة الحاسمة التى تهيأ فيها لمعركة المجاهدة ، وأخَذَ طريق الإياب من رحلة النضال الخاسرة فى دنيا الناس ، وقد ظل حزنه على أمه ، كلما نفد جُدِّد ، ثم تتابع الراحلون بعدها من « أهله الصالحين » إلى مضاجعهم تحت الثرى ، وبقى ما عاش يرنو من وراء الحجب إلى مثواهم القريب البعيد .. فلماذا غابت وغابوا عن عالمه الآخر فى الغفران ؟

* * *

فى ظاهر الرؤية القريبة أن حرص أبى العلاء على أماليه اللغوية والأدبية ، قد حدّ من استغراقه الوجدانى فى عالمه الخاص ... فهل أراد أن يلهو عن مواجعه ومواجده ، بتلك الأمالى التى بقيت وحدها مشغلة دنياه بعد أن رفض الحياة ؟

أو لعله باختياره « ابن القارح » بطلاً لمسرح الغفران ، لم يجد لشخوص أحبابه مكانًا هناك ؟ الذى أطمئن إليه ، هو أن أبا العلاء حين اتجه بابن القارح إلى العالم الآخر ، صمم على أن

ينحى عن طريقه من لا شأن لهم به . فكانت مجاهدته فى كبح أشواقه إلى لقاء أحبابه ، ومقاومته حاجته النفسية إلى الإفضاء بما يئوده من شجو وشجن ، استجابةً لضرورات العمل الفنى فى تنحية ذاته عن مسرحٍ اختار له « ابن القارح » بطلاً ، ومهّد لظهوره عليه بتلك المقدمة الثعبانية السوداء ، التى جاءت على غرابتها أشبه بإعلان مسرحى عن ظهور شخصية ابن القارح ، تحف بها ظلال الخبث والشر ، والنفاق والغدر ، وتقترن فى خاطر أبى العلاء بالحيّات والسواد .

ومثل أبى العلاء من يَضِنّ بأمه وأبيه وأهله الصالحين ، على مسرح أعدَّه لهذا « الخضب الأسود » يعطيك من ملمسه اللين نعومةَ الحرير ، وفى لعابه السم الزعاف .

وقد أفلح أبو العلاء فيما حاوله ، فتوارى أهله الأعزة عن المسرح ، وإن شق عليه أن يخفى عنا همومه وأشواقه وهواجسه ، فجاء تمثله للعالم الآخر واشيًا بما كان يطوى ويكابد .

على أنه مهما تبلغ قدرة أبى العلاء على الاحتجاب عن مسرح الغفران كى يخليه لابن القارح ، فإن جو المسرح مشحون بأنفاس أديبنا الكبير وصدى صوته ، ورجع النبض الخفى لوجدانه ، وشخصيته هى المسيطرة على الأحداث ، المواجهة لتلك الشخوص التى جاء بها لتؤدى أدوارها المرسومة فى تلك الرحلة الذهنية الوجدانية إلى عالم آخر ..

* * *

البَابُ الأول

دراسات حول النص

١ – ابن القارح ورسالته .
٢ – أبو العلاء ورسالته .
٣ – لم أمليت الرسالة ؟ ومتى ؟ وأين ؟
٤ – الحياة العامة عصرَ الغفران .

١ – ابن القارح ورسالته

« على بن منصور الحلبى »

– بطاقة تعريف من ملفه عند أبى العلاء .

– فطنة ابن القارح لمغزى البطاقة ، وضيقه بسوء رأيه فيه .

– رسالته إلى أبى العلاء تملقًا وتزلفًا . تكشف عن لؤم طبعه وخبث سريرته وسواد قلبه .

– رد أبى العلاء عليها برسالة الغفران .

ربما يبدو غريبًا ، أن يستغرق أبو العلاء فى مثل هذا الرد الطويل العجيب ، ويمضى بابن القارح إلى عالمه الآخر ، ولم يسبق له قط أن لقى هذا الرجل أو كاتَبَه . والعهد بالرسائل الإخوانية الطوال ، أن تكون بين من تربطهم أواصر مودة وصحبة ، أو خصومة وعداء . والذى بين أبى العلاء وابن القارح ، يبدأ أول ما يبدأ بهاتين الرسالتين المطولتين ، عن غير سابق معرفة أو اتصال .

ولا أذكر فيما قرأت لأبى العلاء ، وقد طالت صحبتى له فيما وصل إلينا من آثاره ، ما يشير إلى ابن القارح من قريب أو بعيد . وإنما يأتى ذكره لأول مرة على لسان أبى العلاء ، فيما نقل ابن القارح نفسه ، فى رسالته إلى أديب المعرة ، فذلك حيث يقول :

« بلغنى عن مولاى الشيخ أدام الله تأييده ، أنه قال – وقد ذُكِرتُ له : أعرفه خَبَرًا ، هذا الذى هجا أبا القاسم ، المغربى » (ص ٥٥)[1] .

ومنها نعلم أن ابن القارح جاء ذكره فى مجلس أبى العلاء ، فما زاد على أن قال : أعرفه خَبَرًا – أى سماعًا – هذا الذى هجا أبا القاسم المغربى .

فماذا تعنى تلك العبارة التى استحضرها أبو العلاء على البديهة ، عنوانًا على شخصية ابن القارح ، واكتفى بها بطاقةَ تعريفٍ به ؟

إنها تعنى بإيجاز : الشر والعقوق ، والغدر والنفاق .

فأبو القاسم ، هو الحسين بن أبى الحسن على بن أبى عبد الله الحسين الوزير الأديب ، الملقب بالكمال ذى الوزارتين . أبوه : أبو الحسن على بن أبى عبد الله الحسين بن جوهر ، وكان أبو عبدالله الحسين بن جوهر قائد القواد فى جيش الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ هـ – ٤١١ هـ) .

وجَدُّ أبيه : « جوهر الصقلى » الذى فتح مصر للمعز الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ ، واختط مدينة القاهرة ، وبنى الأزهر الشريف ، وأقام بها الدعوة للعبيديين الذين حكموا باسم الفاطميين .

عاش ابن القارح محسوبًا على آل المغربى ، أيام كانت الدنيا لهم ، يتقلب فى نعمتهم ويشدو بفضلهم ومآثرهم ، فلما دارت الدائرة عليهم وقَتَلَ « الحاكم بأمر الله الفاطمى » قائده أبا عبد الله الحسين بن جوهر سنة ٤٠١ هـ ، وتشرد بنوه فى الآفاق ، انقلب ابن القارح على من كانوا أولياء نعمته ، وأفحش فى سبهم وهجائهم .

* * *

(١) يأتى فى مستهل (الكتاب الثانى : قراءة جديدة فى رسالة الغفران) حديث عن شخصية ابن القارح فى بصيرة أبى العلاء ، ونحاول هنا أن نستخلص منها لمحة موجزة ، تركز النظر فى الملامح التى بدت فى رسالته إلى أبى العلاء ، وكانت شاخصة فى ذهنه ماثلة فى خاطره ، وهو يملى رسالة الغفران ردًّا عليها .

وأبو العلاء ، فيما أرجح ، كان يعرف الكثير عن ابن القارح ، وهو أديب من معاصريه ، أصله من حلب . لكنه حين ذُكِر له ابنُ القارح كان هجاؤه أبا القاسم المغربى ، هو الصفة المميزة لشخص ابن القارح ، والكلمة الجامعة التى تغنى أبا العلاء عن مزيد تعريف به .

وقد بلغت الكلمة ابنَ القارح فصكت سمعه ، وكان يتهيأ للإياب إلى حلب ، يحمل عبء نَيِّفٍ وسبعين عامًا من عمره (ص ٤٥) أمضاها فى التنقل بين البلاد ، يرتزق ببضاعته من الرواية والأدب ، ويطوف بها على قصور الحكام ، وقد أنهكه العكوف على الملذات البهيمية فيما قال عن نفسه فى رسالته إلى أبى العلاء (ص ٦٣ ، ٦٤)[1] .

وما من شك فى أنه حين عزم على الإياب إلى حلب وهو فى عشر الثمانين (ص ٦٦) أشفق أن ينبو به المكان ، وفى حلب « أبو العلاء » مِلء القلوب والأسماع والأبصار مهابة وجلالا وعلمًا وعفة وتقى ، ولم يفته ما تعنى كلمة أبى العلاء فيه : « هذا الذى هجا أبا القاسم .. » بل أدرك من فوره أن أبا العلاء يستشرّ طبعه ، ويتصوره بصورة من يضع الكفر موضع الشكر (ص ٥٥) .

وزيَّن له ذكاؤه العملى ، أن يمهد لأوبته إلى حلب ، برسالة يتقرب بها إلى أديبها الأكبر وإمام العربية فى الشام ، ويتملقه بالمودة والإجلالِ ، ثم يبسط عذره فى هجاء أبى القاسم وبُغضِه إياه ، ويشكو إليه غدر الأصحاب وكيد الحساد وأفاعيل الزمن (٦٤ – ٦٥) استدرارًا لعطفه . ويشتد فى الحملة على الملحدين ، تظاهرًا بالغيرة على الدين . حريصًا على أن يعرض فى ثنايا ذلك كله ، بضاعته من العلم والأدب . وزادت الرسالة « أبا العلاء » علمًا بكاتبها ، فكانت شاهدًا صارخًا ، على النفاق البغيض والرياء الرخيص . فهذا الرجل الذى لم يلق أبا العلاء قط ، يبدأ تراسله بالحلف بأغلظ الإيمان أنه يفتدى أبا العلاء بنفسِه ، ويسأل الله أن يجعل يومَه قبله ، حقيقة لا مجازًا ! وأملاً لا مجاملة !

وهذا الرجل الذى انغمس فى الملذات البهيمية ، وأسرف على نفسه وجسده بالشهوات المنهكة المدمرة ، يفتتح الرسالة بتمجيد الله ، ويستطرد خلالها فيلعن الزنادقة والملحدين ، ويتكلف سرد نوادر إلحادهم مقحمة على السياق !

وهذا الرجل الذى شبع من خير أبى القاسم المغربى ، لم يكد رجاؤه فيه ينقطع حتى أسَفَّ فى هجائه ، ثم لما سمع قالةَ أبى العلاء فيه ، وخاف « أن يستشر طبعه ويتصوره بصورة من يضع الكفر ، موضع الشكر » جاء يبرر لأبى العلاء هجاءه أبا القاسم فيقول :

« وبغضى له ، شهد اللّهُ ، حيًّا وميتًا ، أوجبَه أخذُه محاريبَ الكعبة الذهب والفضة ،

(١) الأرقام المذيل بها فقرات النص فى هذا المبحث ، تشير إلى مواضعها فى رسالة ابن القارح ، مع الغفران فى طبعات الذخائر.

وضربُها دنانير ودراهم سماها الكعبية .. وكم دمٍ سفك ، وحريمٍ انتهك ، وحَرة أرملَ (٥٨) ، وصبي أيتم .. » .

وأملى أبو العلاء ردّه ، لم ينافق ولم يجامل ، لكنه تلطف فى سخريته بكل كلمة مما فى رسالة ابن القارح . فكانت مقدمة الغفران ، الثعبانية السامة السوداء ، كاشفة عن شخصية ابن القارح فى وجدان أبى العلاء ، ثم كانت الأسطر التى كتبها ابن القارح تمجيدًا لله ، معارجَ من نور تعرج به إلى السماوات ، ومن هنا كان المنطلق إلى العالم الآخر ، الذى أغرق فيه ابنَ القارح فى اللذائذ الحسية التى تهالك عليها فى دنياه !

حتى إذا بلغ من ذلك ما أراد ، تفرغ فى القسم الثانى للرد على ما جاء فى رسالته ،فاستهله بالوقوف طويلاً عند عبارة ابن القارح « جعلنى الله فداه » ليملى فصلاً مطولاً فى النفاق والمنافقين ، ثم استطرد يروى ما فات ابن القارح من أخبار الزنادقة وأشعارهم .

وأمعن فى السخرية بتوبته ، وحججه الخمس ، إلى أن أنهى الرسالة بأمالٍ لغوية وأدبية عن الدنانير ، وثمانين ، والخثولة . تعليقًا على ما ذكره ابن القارح عن دنانيره الثلاثة والثمانين التى سرقتها بنتُ أخته !

وكان تفنن أبى العلاء فى أماليه اللغوية والأدبية ، جريًا على عادة أدباء عصره فى رسائلهم التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وردًّا على ابن القارح بما يبهره ويرده إلى شىء من التواضع .

٢ – أبو العلاء المعرى ورسالته

- موجز سيرته :
- البيت والميراث .
- طفولته وعماه ، نبوغ مبكر ، معركة التحدى .
- موت أبيه ، رحلته إلى بغداد ، مناخ العصر ، صراع بين شد الطموح وقصور الوسائل .
- حديث الإياب ، موت الأم ، رهين المحبسين ، صائم الدهر .
- السر المذاع ، المعركة الكبرى مجاهدة ما فى فطرته من حب الدنيا .
- الأديب الحر ، خصومة واتهام ومحاكمة ، ضجعة القبر ، فى منطقة الظل ، انحسار الظلام .

* * *

٢ – أبو العلاء المعرى ورسالته

موجز سيرته :

« أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى » .

ينتمى إلى قبيلة تنوخ القحطانية ، من العرب الأصيلة العاربة . وبيتُه بيت علم ، قدّم إلى بلده أعلام القضاة والعلماء والأدباء ، جيلا بعد جيل .

وُلد أحمد بِمَعَرَّةِ النعمان من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس ، لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ . وبدأ خطوته على الطريق المهيَّأ لمثله ، مرجوًّا لمستقبل مرموق ، بما تلقى من ميراث ببيته العريق فى الفضل والعزة ، والعلم والأدب .

ولكنه ابْتُلِيَ بصدمة قاسية ، قبل أن تستقيم خطوته على الدرب :

اعتل فى سنته الرابعة علة الجدرى : فما أبلّ منها إلا بعد أن شوهت وجهه بندوب لابرء منها ، وذهبت بنور بصره ، فأسدلت بينه وبين الدنيا حجابًا أسود ، لا أمل فى انحساره حتى آخر العمر ، ومن ذلك الحادث المُلمِّ ، فى الطفولة الباكرة ، بدأت رحلة أبى العلاء فى هذه الدنيا وقصته معها .

* * *

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه إلى عالمٍ يمنحه نور البصيرة ، ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام بصره .

قرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات ،وسمع الحديث من أبيه وجده وجدته ، وجماعة من محدِّثى بلده فى زمانه ، وتلقى علوم العربية على أبيه ، وعلى جماعة من أصحاب « ابن خالويه » فظهر من مخايل نجابته وفطنته ، ما جعل أباه يمضى به إلى حلب – وفيها أخواله بنو سبيكة – حيث تلقى النحو على إمام العربية فى حلب : « محمد بن عبد الله بن سعد النحوى » راوية الشاعر أبى الطيب المتنبى .

من عهد صباه الغضِّ ، ظن أبو العلاء أنه اهتدى إلى سلاحه فى معركة الوجود ، وعرف طريقه على الدرب : مواهبهُ تُعوِّضه عن عجزه ، ونورُ العلم يمنحه الضياء .

وفى اعتدادٍ وإصرار ، صمم على أن يتحدى محنَته ويشق سبيله لا يعوقه فقدُ البصر . وبلغ المدى فى مكابرته ، فرُئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ، ويأخذ فى فنون الجد واللهو كما يفعل لِداته المبصرون .

وبدا كأن الدنيا لا تتسع له ، لِشططِ طموحه واعتداده بمواهبه :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم ... بإخفـاء شمسٍ ضوؤها متكاملُ
يهم الليالى بعضُ ما أنا مضمر ... ويُثقل رضوى دونَ ما أنا حاملُ
وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ
وأغدو ولو أن الصبـاح صوارمٌ ... وأسرى ولو أن الظلام جحافلُ
ولى منطِق لم يرض لى كُنه منزلى ... على أننى بين السماكَيْن نازلُ
لـدى مـوطنٍ يشتاقه كلُّ سيد ... ويقصر عن إدراكه المَتناولُ
ينافس يـومى فىَّ أمسى تشـرفا ... وتحسـد أسحارى علىَّ الأصـائلُ

« سقط الزند »

* * *

لىَ الشرفُ الذى يطأ الثريا ... مع الفضلِ الذى بَهرَ العبادا
ولـو مـلأ السُّهَى عينيه منى ... أَبَرَّ على مَدى زُحلٍ وزادا
أُقِلُّ نوائبَ الأيـام وحـدى ... إذا جمعت كتائبَهـا احتشادا

« سقط الزند »

* * *

وأملى له القدَرُ حينا ، فمضى فى شبيبته على غلوائه ، يبهر أهلَ بلده بنادرِ ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته ، ويسرف على أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة ، مع الولع بالعلم والجدِّ فى طلبه . وما كان فى لطف حِسِّه وصفاء وجدانه وعجيبِ فطنتِه ، بحيث يغيب عنه عُقمُ هذه المكابرة فى تحدى محنته ومعانَدةِ قدره ، وقد أفلتَتْ منه ، فى ذلك العهد ، ومضات كاشفة عن عالمه النفسى المجهَد بالصراع بين شد الطموح وعجز الوسيلة ، بين إرادة الحياة وخيبة الرجاء .

وفيما هو حائرٌ بين اليأس والأمل ، بين المكابرة والرفض ، مات أبوه سنة ٣٩٥ هـ ، فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضرير من كان له أبا صديقًا وقائدًا مرشدًا . فتركته اللطمة فى مهب الريح لا يقر له قرار :

لقد مَسَختْ قلبى وفاتُكَ طائرًا ... فأقسَمَ ألا يستقرَّ على وُكن
يُقضَى بقايا عيشه ، وجناحُه ... حثيث الدواعى فى الإقامة والظعن
كأن دعاء المـوت باسمك نكزةٌ ... فرتْ جسدى والسُّم ينفث فى أذنـى

فهل أنت إن ناديتُ رمسك سامع ... نداءَ ابنك المفجوع بل عبدك القن
ونادبــةٌ فــى مسمعى كلّ قينة ... تغرّد باللحــن البرىء عن اللحن
وأحملُ فيــك الحــزن حيًّا فإن أمُت ... وألقكَ لم أسلك طريقًا إلى الحــزن

« سقط الزند »

* * *

كان حين تلقى اللطمة فى الثانية والثلاثين من عمره .

وفى غربته النفسية اتجه تفكيره إلى بغداد ، عاصمة الدنيا ، فشقَّ عليه أن يفارق أمَّه فى معرة النعمان . وقد كانت تفيض عليه من حنانها ، ما يؤنس حياته الموحشة ، ويضىء شعاعًا فى ظلمة دنياه .

وطال تردده بين رغبته فى السفر ، وإشفاقه من فراق أمه .

واستغرق تأهُّبه النفسى للرحلة إلى بغداد نحو ثلاث سنين .

ثم أجمع أمره ، فشد الرحال إليها ليجد نفسه فى دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة .

* * *

لماذا ألقى بنفسه ، وهو الضرير المستطيع بغيره ، فى ذلك الخِضم الهادر ؟

وماذا لقى فى العاصمة الكبرى من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به إلى إصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟

ظاهرُ الأمر أنه ، بعد أن بهر إقليم حلب بعلمه وأدبه ، أحب المقام « بدار العلم ، لمكان دار الكتب بها » كما قال .

ولكن وراء هذا السبب الظاهر المُعْلَن عاملا خفيًّا فى أعماق وجدانه :

كانت الأيام قد أنضجت وعيه لذاته ، وكشفت له عن عُقَم مكابرته ، لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدى الدنيا « ومعاندة القدر » .

حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر إلى بغداد ، ليبلو طاقته على المضى فى المقاومة والمعاندة .

وأغلب الظن أنه صفَّى قبل الرحلة حسابه مع طموحه ، فلم يستبق منه إلا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى . وإذ كان قد ظفر فى إقليم حلب والشام بشهرة بعيدة المدى ، فقد بقى أن تعترف به العاصمة الكبرى . فشدَّ رحاله إليها يحدوه رجاء فى أن يفر من الهزيمة التى أحس بوادرها فى أعماق وجدانه ، وأمل فى أن يفرض وجوده على الدنيا والناس ، وتزود للرحلة بأسلحته التى يملكها :

ذكاء شبه أسطورى ، وفقه راسخ لعلوم العربية والإسلام ، وموهبة أدبية أصيلة مبدعة .

* * *

فى محلة « القطيعة » على شطّ دجلة ، كان منزله .

ومن ماله الذى حمله معه من المعرة ، كان يدبر ضرورات عيشه .

وتوافد عليه البغداديون يختبرونه غير مكتفين بشهادةٍ إقليمية حملها معه أو سبقته إلى مدينة السلام ، فالذى يبهر الناس فى المعرة أو حلب والشام ، قد يكون فى العاصمة الكبرى غير لافت ولا مثير ، ولابد من أن يكون لأهل بغداد الكلمة العليا فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه ، وندرة ذكائه وقوة شاعريته .

واجتاز الامتحان بنجاح . وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان فى حفظه وعلمه باللغة ، كما شهدوا لشاعريته ، فأقبلوا يقرأون عليه ديوانه « سقط الزند » .

لكن العاصمة ما لبثت أن كشفت له عن قناعها وألزمته أن يعيد النظر فيما تزود به للمقام فيها :

الأدب ؟ لا جدوى منه إلا إذا عزف للرؤساء وتمرغ على أعتاب السادة ذوى الجاه والنفوذ .

العلم ؟ إن مجتمع العاصمة فى عصره ، يقدر من يعرف كيف يأتى بالذئب من ذيله ، أكثر من تقديره مَن يعرف له سبعين اسمًا أو ثمانين .

عِفة الضمير وكرم الخلق ؟ يا لها من بضاعة نافقة ، فى سوق يروج فيها النفاق والزيف والتضليل والدجل !

وأجمع أمره على الانسحاب والعزلة وهو ما يزال فى خضمّ المعترك ، وقد عرف أن أسلحته مفلولة تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها ، من مكر الخيلة ونعومة المداهنة وبراعة النفاق ولؤم الاحتيال .

وأحس ألاّ مكان له فى دنيا الناس ، وقد أعوزه عمى البصيرة وبلادة الشعور والضمير ، ومرونة فى الخلق والطبع يتلون بها فى دنيا الثعالب والذئاب ، وموكب المنافقين والمهرجين .

وبدأت رحلة الإياب ، وهو فى بغداد مقيم .

انسحب منها نفسيًّا ، حين أدرك بملء يقينه أن المكابرة ضالة ، وأن الأمل فى الرىّ سراب ، وأن التحدى عقيم :

فيادارَها بالحـــزن إن مزارهـا ... قريب ولكنْ دون ذلك أهوالُ

تمنيتُ أن الخمر حلّت لنشوةٍ ... تُجهِّلنى كيف اطمأنت بىَ الحال

فأذهل أنــى بالعــراق على شفى ... زرىّ الأمــانى لا أتيس ولا مــال

وهمَّ بالرحيل فتشبث به أهل بغداد محزونين لفراقه ، وهو أشد منهم حزنًا ، قد لبس الحداد على أمانيه الموءودة وطموحه المقهور ومسعاه المغلول ، وأنشد مودِّعًا دنياه فى بغداد :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا ... على زفـرات ما يَبِينَ من اللذْع
وداعَ ضنًى لـم يستقل وإنمـا ... تحامل من بعد العثار على ظلع
ألا زوِّدونى شربةً ولو آننى ... قدرت ، إذن أفنيت دجلة بالجرع
أبيت فلم أطعـم نقيـ ع فراقكم ... مطاوعة حتى غُلبت على النشع
لبستُ حـدادًا بعـدكم كل ليلـة ... من الدهم، لا الغر الحسان ولا الدرع

« سقط الزند »

فى عام أربعمائة ، لست ليالٍ بقين من رمضان ، ركب راحلته وألقى قياده إلى من يمضى به فى رحلة الإياب .

موزَّعَ الخواطر بين حُزن على فراقِ « أنفَس مكان لم يسعف الزمان بإقامته فيه » .

وشوقٍ إلى راحة اليأس ، ولهفة على لقاء أمِّه التى بلغه أنها مريضة بمعرة النعمان .

* * *

آب الضرير بحسرته إلى منزله بالمعرة ، ليجد أمَّه قد رحلت عن الدنيا بغير وداع .

وترنح كيانه الجريح من وطأة اللطمة الساحقة ، فما عاد يجد نفسه إلا فيما أُجمع عليه أمره « من عزلة وانفراد » .

وأوصد بابه ، لا يأذن لزائريه فى الدخول ولو كانوا من ذوى القربى .

ثم رقَّ قلبه لضراعتهم ، ففتح بابه ليستقبل طلاب العلم ، ولتكون إليه رحلة العلماء من مشرق ومغرب .

وانقطع للتدريس والإملاء ، فإذا خلا إلى نفسه فى غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأمل . وما باختياره كان يلقى زائريه ، ولا باختياره كان قرارُه الصارمُ بالعزلة ، وإنما حمله عليها عجزُه عن احتمال نُكر العصر وفساد المجتمع .

* * *

وهان عليه أن يعيش صائم الدهر ، وأن يقضى رهين محبسيه : العمى والعزلة ، تسعًا وأربعين سنة ، محرومًا من الزوج والولد وطيبات الرزق : « طعامُه البقل ، ولباسُه خشنُ القطن ، وفراشه سجادته : من لبَّادٍ فى الشتاء ، ومن حصير البردى فى الصيف » .

وكان له إيراد يسير يأتيه من وقف : بضعة وعشرون دينارًا فى السنة ، يدفع نصفه أجرًا لخادم

وورّاق ، ويقيم أوَده بالنصف الباقى . فإذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضرورات العيش ، تخلى عمّا يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن يلتمس زيادة فى رزقه من أى سبيل . وذلك كله قد هان عليه .

وأما الذى لم يهن عليه ، فهو مُجاهدة ما رسَخ فى نفسِه من حب الدنيا ، وما ظلّ يكابد من ظمأ إليها وشغف بها . مع إصراره على رفضها .

وإلى آخر عمره ، ظل يئن من عجزه عن أن يقهر فى فطرته حبَّ الدنيا ، والتماس راحةِ اليأس منها ، والسلو عنها ؛ وإن ظنّ الناس أنه وطئها بقدميه من لحظة انسحابه إلى محبسيه .

ومن صميم عزلته ، يأتينا صوتُه كاشفًا عن عذاب المجاهدة ، وناسخًا ما شاع فينا وذاع من بغضه للدنيا وزهده فيها :

« أحِب الدنيا وآلُتها ليستْ فىَّ ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلامَ التشوف والضلالُ ؟ » .

« إنما أنا رجلٌ بُلِىَ بالصَّدَى ، لا يجد موردًا ، فهو ظمآن أبدًا » .

« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتْكِ الحالية ، والنفس عنك غير سالية » .

« بى طب – داء – فأين أستطب ، وأنا تحت حب الدنيا محب – رازح – أتقلنى فأنا مُكِبّ » .

« الفصول والغايات »

وصدقتُ هذا العيشَ فى حبى له ... واغترنى بخداعِه وكِذابه
عذبٌ يعذبنى البقاءُ وللردى ... يومٌ يُخلصُ من فنون عذابه

* * *

لو أن عشقك للدنيا له شبحُ ... أبديته ، لملأتَ السهل والجبلا

* * *

شقينا بدنيانا على طول ودِّها ... فدونك مارسْها حياتَك واشقَها
ولا تبدينّ الزهد فيها فكلُّنا ... شهيد بأن القلب يضمر عشقها

* * *

أيها الدنيا لحاكِ ... اللّه من ربّةِ دلّ
ما تسلىّ خلَدى عن ... كِ وإن ظن التَّسَلى

* * *

أشربتُ حبَّك لا يَنفيه عن جسدى سوى ثرى لدمـــاءِ الإنس شرّابِ

* * *

وأعوزنى ماءٌ أزيل به الصدَى فلا عيشَ إن لم أشرب الكدِرَ الطرْقَا
وحبىَ للدنيـــا كحبِّكَ خـــالصًا وفى عُنقينا مـن هـــوى جعلت رِبْقَا

* * *

لُبْثُ حولَ الماءِ من ظمأ إن غربى مـا لـه مرسُ
مُهْجتى ضـدٌّ يحـــاربنـى أنـا مِنى ، كيف أحـــترسُ !

* * *

تباركتَ يارَبَّ العلا أنت صُغتها فليتك فى أرزائها لم تباركِ
أعانقهـــا عند الـــوداع تشبثًا وكيف وداعٌ بـين قـــالٍ وفاركِ

* * *

وقال الفارســون حليفُ زهدٍ وأخطأت الظنون بما فَرَسْنَهْ
ورُضْتُ صعـاب آمالى فكانت خيـــولاً فى مراتعهـا شمَسْنَه
ولـــم أعـــرِض عن اللذات إلا لأن خيـــارَها عـــنى خَنَسْنَه

« اللزوميات »

ومن هنا كان عذابُه وكانت مجاهدتُه .

لم يجد مدى الدهر ، كما قال ، راحة من هذيان أمانيه .

ولا ظفر براحة اليأس من دنيا يحبها ، وآلتها ليست فيه .

وذلك ما ينبغى أن نذكره ، مما يضىء لنا عالمه النفسى فى « رسالة الغفران » التى أملاها فى هذا الدور من رحلة حياته .

* * *

والحقُّ أننا لا نستطيع أن نفهم « رسالة الغفران » وسائر آثار أبى العلاء ، ما لم نتحرر من الفكرة المسيطرة المشهورة عن انتصاره على الدنيا وزهده فيها بمجرد أن أعلن انسحابه منها .

بل لن نقدر مجاهدته الباسلة حق قدرها ، إذا فاتنا ما كان يكابد من أشواقه المكبوتة ، ولو صح القول أنه « وطىء الدنيا بقدميه فانقادت له » ، و« ملأ قلبه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » ، وكان الزهد طبيعة فيه ، لو صح هذا ومثله كثير من المقولات الشائعة فيه ، لما كان

فى سلوكه ما يغرى بالوقوف عنده ، أو يحمل على شىء من التقدير ، بل يكون الحرمان هَيِّنًا عليه ما دام مُيَسَّرًا للزهد مجبولا عليه .

وإنما كان سلوكه موضع تقدير ، لأن الرجل استطاع مع حبه للدنيا وعجزه عن السلو عنها ، أن يأخذ نفسه بهذا الحرمان الصارم ويصبر عليه .

لقد باع الدنيا ، أشدَّ ما يكون شغفًا بها ، واشترى حريته وكرامته وضميره ، فى زمنٍ أذلَّ الحرصُ فيه أعناق الرجال .

وكان انسحابه من المعترك ، احتجاجًا علميًّا على نُكر العصر وفساد المجتمع ، ورفضًا معلَنًا لمسخ القِيَم ، وضلال المقاييس ، واختلال الموازين .

* * *

إن يكن امتُحِن بعمى البصر ، فقد بقى له نورُ البصيرة .

وإن يكن عاش فى سجن موصَد ، فقد أرهفت العزلةُ وجدانَه ، ومنحته صفاءَ الذهن ووضوحَ الرؤية ، فكان البصيرَ الذى خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى أذقانهم فى خِضَمِّهَا ، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها .

وفى بسالةٍ نادرة ، أعلن صيحة الاحتجاج على المنافقين والمرائين والنفعيين . وَواجَه جبروت الحكام بكلماته الصادقة ، وأعلن الحرب على الذين استغلوا جهل العامة ، فجعلوا السياسة والدين والعلم والأدب ، مصيدة لرزقٍ غير حلال .

وإلى آخر عمره ، ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة ، فى مجاهدة شغفة بالدنيا وتعلقه بها . وفى رفض الظلم والبغى والتضليل والأثرة والنفاق .

وإذا كانت الجماهير قد تبلَّد حِسُّها لطول ما سيمت من ظلم ، وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل ، وما تسلط على وجدانها من إلحاح فى تبرير فساد الأوضاع ، فإن أبا العلاء لم يُعفها من التبعة ، ولم يَرضَ لها أن تصبر على الضيم ، وأن ترسف فى الأغلال مُنَوَّمَةً بالزيف ، ومنصرفةً عمَّن يدعو فيها بدعاء العدل الاجتماعى والخير العام :

أعـــــاذل قد ظلمتْنا الملوك ونحـــن على ضعفِنا أظـلمُ

* * *

اسكتْ ، وخَل مُضلِّهم وشئونَه ليسوقُهـــم بعصـــاه أو بِحُسامِهِ
نُصِحوا فما قبلوا، وباعوا كتكتا من شرِّ معدنـــه ، بقيمة سامِه
فكأنهـــا غنَمٌ ترود إســـــامَها من لا يبـــالى كيف حـالُ مَسامِهِ

« اللزوميات »

* * *

هل كان من المتوقع ، أن يدعه كلُّ هؤلاء الذين تصدى لخصومتهم يكشف عن غيِّهم ونفاقهم وزيفهم ، وأن يُخلوا بينه و بين الجماهير المضَلَّلة يوقظ فيها الوعى والتمرد ، ويمزق عن وجدانها حجب الغفلة ؟

مثلُ أبى العلاء مَن يُعَدُّ فى نظر عصره ، وكلِّ عصرٍ فاسد ، خارجًا على المجتمع ، متمردًا بسلوكه وقوله على أوضاع مقررة ، ونظمٍ سائدة ، وأعرافٍ مألوفة .

وليس من طبيعة الأشياء أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدى ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء دون أن يتصدى له بتحدٍّ مقابل ، ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان .

وإذ لا سبيل لخصومه إليه زجره بحرمانٍ ، أو إغرائه بعطاء أو الحجر على حريته بحبسٍ أو نفى ، فإن فى عقيدته منفذًا لخصومه غليه من حيث لا يتوقع . مستغلين فى ذلك ، العاطفة الدينية للجماهير ، وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالة سوء فى عقيدته ، حتى تصد عنه وتنكره ، دون أن أن تتريث لتتحرى التهمةَ أو تميز حقًا من باطل .

وقلَّ من أحرارِ الفكر والكلمة من لم يُتهم فى عقيدته .

وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرَّم على نفسه ما أحل الله من طيّبات الرزق ، وامتنع عن الزواج ، وجهرَ بأقوالٍ تنم عن حيرته ، وأخرى صريحة التجريح لرجال الدين .

فمن هنا يُمكن أن يُطعن .

وقد تلقى الطعنةَ الجارحة في حياته ، واحتملها على مضَض ، مفوضًا أمرَه إلى خالقه ، وموقنًا أن مثل هذا البلاء ضريبةٌ مفروضة على كل من يتحدى العُرف العام .

وكانت صلابتُه فى الزهد والتعفف ، مظنة أن تحميه من التهمة والريب .

لكن العصر الذى هضم الحقوق وأهدر الحرمات ، أساغ الكبائر والمنكرات ، وكان له فى الموقف رأى آخر : يَعُدُّ الزهد فى زينة الدنيا إثمًا ، والقناعة خطيئة ، والصومَ عن طيبات الرزق معصية ، وقد قالها أبو العلاء :

لَعمرى لقد عزَّ المباحُ عليكمُ ... وهان بجهلٍ ما يُصَان ويُحظَر

وكان أن خرجتْ قضيةُ « صائم الدهر » من نطاق السلوك الشخصى لزاهدٍ متعفف ، إلى جَدل كلامى مُعنِت ، فى حكمة الخالق ، ونظام الكون ، ورُتَبِ الكائنات ، ومشكلة الخير والشر !

ولعلهم أفلحوا فى إعناته وإن لم يفلحوا فى حمله على العدول عن مسلكه ، ورضى أن يلقى الله سبحانه « وهو لا يُطالبَ إلا بما فعل من اجتناب اللحوم والملذات ، فإذا وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد » .

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهوَنَ عليه مما آلمه وأضناه ، من افتراء مُفترين ، أساءوا تأويل أقواله ، وحرّفوها عن مواضعها ، وتقوّلوا عليه بما لم يقله .

ومن شأن كلمة السوء أن تشيع ، وإن شهدت آثارهُ بقوة إيمانه وصوفية وجدانه ، وشهد له الذين عرفوه من قُرب ، بصحة العقيدة وصدق اليقين .

واضطرب الناس فى أمره :

بين ما يعلمون من صلابته فى الزهد ونادر ورعه وتقواه ، ويسمعون من أماليه وأشعاره فى التوحيد والعظات ، والشهادة له بصحة العقيدة وقوة اليقين ورسوخ الإيمان .

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عمَّا أحل الله من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ، وما يسمعون من قَدْحٍ فيه وتجريح .

وبعضُ هذه البلبلة يكفى لصدِّ عامة الجماهير عن أبى العلاء .

وهو ساهرٌ فى دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلَس ، والصبح ناءٍ بعيد :

طالتْ عـــلى ساهرٍ دُجْنَتُهُ والصبحُ ناءٍ ، فمَنْ لنا بِغَلَسْ

وصمد للتجربة حتى آخر العمر .

تخاذلتْ أعضاؤه ، ووهن جسمه .

وما خذله صفاءُ ذهنه ، ولا وهنتْ عزيمته وطاقته على المجاهدة .

* * *

حتى أراحه الموتُ من محنة الحياة .

فارق الدنيا فى أوائل ربيع الأول ، من سنة ٤٤٩هـ .

تاركًا وصيته أن يكتبوا على قبره :

« هذا جناه أبى علىٌّ (م) وما جنيتُ على أحدْ »

ومسجلاً بها فى لحظة النهاية ، مأساةَ حياته وموقفه منها .

وشيعوه إلى مثواه الأخير ، حيث أضجعوه فى لَحْدِهِ .

وعلى قبره وقف أربعة وثمانون شاعرًا يرثونه ، وهو مغيَّب تحت الثرى لا يسمع صوتَ مفجوعٍ فيه ، ولا يجيب نداءَ محزونٍ عليه .

ولمدى سبعة أيام . اقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن حتى أتموا مائة ختمة ، ثم انفض المأتم .

واستراح المتعب ، ونام بعد طولِ أرق وسهاد .

* * *

كما قال رائيه .

لكنه فرض نفسه على الحياة ، وخاض معركته من وراء قبره ، ضد ضلال المقاييس واختلال القيم .

ومضى « مقطوعَ النسل مُجتثَّ الفرع » كما قال عن نفسه .

لكنه ترك تراثه يقاوم محنة الاضطهاد ، ويبقى له منه – غير الذى عَدَتْ عليه عوادى الضياع – ما يحيا به فى ذاكرة التاريخ وضمير الإنسان .

وقد ألقت عصور الظلام بتراثه فى منطقة الظل ، وشُغل مؤرخو الأدب بالكلام فى عقيدته ، فظلت تهمة الإلحاد تلاحقه فتغرى الأجيال بنبذِه .

وفى الأفق رجعُ صدًى من صوته :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إنى أُخـــاف عليكمُ أن تلتقوا

يهز ضمائر بعض المؤرخين ، فعكفوا على دراسة القضية واستقرءوا كل ما فى (ملف أوراقها) من أقوال ، ثم تصدوا للدفاع عن عقيدة أبى العلاء ، عن صدق اقتناع بصحة دينه ونقاء إيمانه ، وغضبًا لما لحقه من ظلم الافتراء .

وظلَّ مع ذلك مظلومًا .

ومضت قرون وظِلُّ التهمة يحجبه عن أجيال من أبناء العربية . ومن عجب أن العصور التى رجمته – وكانت عصورَ غربة للإسلام – أنكرت عليه ما حرَّم على نفسه من طيبات الرزق ، ولم تنكر إباحة المحرمات وانتهاك المقدسات ، ورأت فى امتناعه عن أكلِ اللحوم وشُرْبِ اللبن إثمًا ، ولم تر إثمًا فى محافل المجون وحانات السكارى ، وأكل حقوق الناس وسفكِ دمائهم .

وأخذته بكلمات جرى بها لسانه تخفيفًا عن كربه ، واحتجاجًا على اختلال الأوضاع ونفاق محترفى التدين ، ولم تأخذ آخرين بادعاء النبوة واعتناق المثنوية ، والجهر بالحلول والتناسخ والرجعية ، ووثنية تأليه البشر !

كأنْ لم يكن فى الدنيا غير « أبى العلاء » ، عدوًّا للدين ، وخطرًا على الإسلام والمسلمين !

* * *

وزادوه تشويهًا ، فقالوا : (إنه عدو المجتمـــع) ، وما كان عدوًّا إلا لأمداء المجتمع .

وقالوا : (متشائم يئد الطموح) ، وما كان سلوكه إلا احتجاجًا على موازين تهبط بقيم الحق والخير والجمال ، فتشل المسعى ، وتقهر إرادة الطموح .

وجحدوه أديبًا بدعوى أنه فيلسوف .

وجحدوه مفكرًا حكيمًا بدعوى أنه أديب ..

وصوته يأتى من وراء القبور :

* أولو الفضل فى أوطانهم غُرَباءُ *

* * *

ومع انحسار ظلمات عصور التخلف ، بدأت الظلال تنجلب عن أفقنا الأدبى ، بعد أن حَجبت عنا أبا العلاء .

وسمعنا أن المستشرقين شغلوا بأبى العلاء من مطلع القرن العشرين ، واحتفوا بتراثه ، فالتفتنا إليه بعد طول غفلة وإهمال ، وأثرى تراثه دراستنا الأدبية ، وما يزال سخى العطاء .

* * *

٣ – لِمَ أمليت الرسالة ؟ ومتى ؟ وأين ؟

فى وقت غير بعيد ، من أواخر الربع الأول للقرن الخامس الهجرى ، تلقى تراثنا الأدبى نص « رسالة الغفران » ، من نوادر ذخائر العربية ، ولم يعن أحد من القدماء – فيما أعلم – بضبط تاريخ ظهور هذا النص ، ولا معرفة الدواعى الحقيقية التى دعت إلى إملائه ، فحين جدَّت الحاجة إلى ذلك ، تعجل المتعجلون من المحدثين فحددوا له سببًا ظاهرًا وتاريخًا عينته لهم القراءة العجلى والنظرة السريعة .

ونحن فى حاجة إلى معرفة الظروف التى لابستْ إملاء ذلك النص ، لنستعين بها على فهم البيئة الخاصة والعامة التى ولد فيها .

(أ) أما لم أُمليت الرسالة ؟

فظاهر الأمر أنها أُمليت رَدًّا على رسالة بعث بها « ابن القارح » إلى « أبى العلاء » ، وهذا يدعونا إلى معرفة الأسباب التى دعت « ابن القارح » إلى كتابة رسالته تلك ، وقد ذكر فيها سببين :

السبب الأول : أن « أبا الفرج الزهرجى » – أحد أدباء ذلك العصر – حَمَّل « ابنَ القارح » رسالة إلى « أبى العلاء » فسُرقت من « ابن القارح » ، فكتب إلى أديب « المعرة » معتذرًا شاكياً متوددًا . وفى ذلك يقول « ابن القارح » :

« كان أبو الفرج الزهرجى كاتب حضرة نصر الدولة – أدام الله حراسته – كتب رسالة إلىّ أعطانيها ، ورسالة إليه – أدام الله تأييده – استودَعَنيها ، وسألنى إيصالها إلى جليل حضرته .. فسرق عديل رَحلاً لى ، الرسالةُ فيه ، فكتبت هذه الرسالة أشكو أمورى .. » .

والسبب الثانى : أن « ابن القارح » بلغه أن « أبا العلاء » ذكر ما كان من هجائه « أبا القاسم المغربى » ، فأشفق ابن القارح من ذلك . وكتب رسالته يُعرِّف الشيخَ بنفسه ، ويبرر هجاءه للمغربى قال :

« بلغنى عن مولاى الشيخ – أدام الله تأييده – أنه قال وقد ذُكِرتُ له : « أعرفه خبرًا .. هو الذى هجا أبا القاسم ، على بن الحسين ، المغربى » . فذلك منه – أدام الله عزه – رائع لى ، خوفًا أن يَسْتَشِرَّ طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر .. » .

ووراء هذين السببين الظاهرين – فيما نرى – دواع أخرى ، لا تخفى على من عاشوا مناخ العصر وعرفوا ولع أدبائه بالترسل لسبب ولغير سبب ، سوى إظهار البراعة ، وعرض البضاعة ،

وسيرى القارئ – فى مقالتنا عن مكان « الغفران » بين فنون النثر العربى – أن عصر « الغفران » أودع فى مكتبتنا مجموعات من دواوين الرسائل ، منها هذه الرسائل الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، يعرض فيها الأديب ثروته من الأدب واللغة .

ورسالة « ابن القارح » تأخذ فى شكلها وظاهرها صورة الرسائل الإخوانية ، لكن كاتبها – الذى لم تكن تربطه بأبى العلاء معرفة سابقة – لم يعن بالمسائل الإخوانية ، بقدر ما لعن الزنادقة والملحدين ، وعُنِىَ محفوظه من اللغة ، والأخبار والأشعار ، والإعلان عن بضاعته ، والتحدث عمن لقى من الأئمة والشيوخ .

وقد جرى « أبو العلاء » ، كما جرى ابن القارح ، على عادة عصره ، واقتفى أثر الأدباء قبله ، وتبع سنتهم ، فمضى يعرض بضاعته ، ويترجم بحديثه عن حاجة فى نفسه .

لكنّا – مع فهمنا روح العصر وتقديرنا لأثره – قد نستغرب تلك الرحلة الخيالية الطويلة المثيرة التى قاد « أبو العلاء » ابن القارح إليها ، فطاف به فى أرجاء العالم الآخر ، وأذاقه من ألوان الملذات مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر .

فهل كان « أبو العلاء » يعرض بضاعته من العلم واللغة والفن ؟ أجل ، ولكنه كان إلى جانب ذلك يحدد برؤياه موقفه من الدنيا والناس ، ويعبر بأسلوبه الخاص عن رأيه فى ابن القارح ، كما كان ينفّس عن أشواقه المكبوتة ، ورغباته الموءودة وهواجسه الكامنة .

فلننظر كيف كان أبو العلاء حين أملى الغفران .

غير مجهول أن « الغفران » أمليت بمعرة النعمان على التحديد ، فى أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجرى ، وذلك مما يسهل علينا أن نعرف الحالة النفسية لصاحبها حين أملاها .

فأبو العلاء قد انقسمت حياته قسمين واضحين متميزين : كان فى أولهما يعيش فى دنيا الناس ، ويأخذ فيما يأخذون فيه من لهو وجد ، محاولاً أن يشارك فى حياتهم ، وأن يناضل بمواهبه وامتيازه ليظفر بمكان له فيها .

وكان فى العهد الثانى معتكفًا فى دنياه ، منصرفًا إلى التأمل والإملاء .

ولا نملك أن نحدد بالضبط مبدأ كل عهد منهما ومنتهاه ، فقد انصرف « أبو العلاء » ، بنفسه عن دنيا الناس قبل أن ينسحب منها ، ونفض يديه منها وهو لا يزال فيها ، وفكر طويلا فى اعتزالها قبل أن يجمع أمره على العزلة فى محبسه بمعرة النعمان .

فلنا أن نقول : إنه أملى « رسالة الغفران » فى صميم الشطر الثانى من حياته ، إذ كان يستهل العقد السادس من عمره .

أملاها بعد أن هزم فى النضال مع الدنيا ، ونبا به مكانه بين الناس ، وانطوى على نفسه محزونًا يعالج همومه ويعانى مواجعه ، متكلفًا الصبر على ما امتُحِن به ، والرضى بما قدر عليه ،

والاستسلام لما أريد له بعد أن يئس من بلوغ ما اشتهاه من مجد الحياة ، ونيل ما اشتاقه من ملذاتها الكبار ، والوصول إلى ما طمح إليه من التصدر فيها والانتصار عليها .

أملاها بعد أن أنضجته الأيام بتجاربها ومحنها ، وكشفت له عن أشواقه المكبوتة ، وأحزانه الكامنة ، وجراحه التى لم تندمل قط ، وقد طالت صحبته لنفسه حتى عرفها على حقيقتها ، وأزال عنها حُجُبَ المكابرة ، وأستار المداراة ، فإذا راحة اليأس قد عزت عليها ، بعد أن عزت عليه قبلها نعمة الأمل ، وإذا الصبر الذى تكلفه كاذب موهوم ، وإذا الاستسلام الذى راض نفسه عليه ، بعيد بعيد ، وإذا الأمل فى الزهد والانصراف عن الدنيا وهم سراب .

أملاها فى كهولته ، بعد أن قطع مراحل الحياة الدنيا ، وأشرف على العالم الآخر ، وانصرفت نفسه إلى التأمل الطويل الحزين ، فى مصير الإنسان .

فى ذاك الجو القاتم والحالة النفسية المكتئبة أملى « أبو العلاء » رسالته ، وإنها لحالة قد تفسر لنا ما فى « الغفران » من إطالة فى وصف ما فى عالمه الآخر من متع مادية تنتظر ابن القارح ، وعرض متفنن لملذات الدنيا ، منقولة إلى ذلك العالم الآخر .

وتفسر لنا كيف جمع « أبو العلاء » الأدباء والشعراء فى جنته ، وهو المعتزل المنفرد ، وكيف حشد فيها ملذات الدنيا كلها ، من خمر ونساء وطعام وشراب ، وهو الذى عاف الخمر ، وتجنب النساء ، وحرم على نفسه طيبات الطعام والشراب . وإن يكن قدر كبير من هذا التفنن ، مرجعه إلى ما كان أبو العلاء يعرف من تعلق ابن القارح بهذه المتع الحسية ، والملذات المادية .

وتفسر لنا كيف ملأ الجنة حركة وانفعالا ، من صيد ونزهة ورقص ، وغضب ورضى ، وغيظ واشتفاء ، وتخوف وتوجس ، وهو الذى حكم على نفسه بالحبس فى منزله بمعرة النعمان نحوا من نصف قرن من الزمان ، مقيدًا سجينًا .

لقد أطال الحديث عن الحياة الآخرة، وتفنن فى تصويرها لغير ضرورة ظاهرة ، واستمرأ حلمه الطويل حتى شغله عن الرد على ما جاء فى رسالة «ابن القارح» ، فلم يشرع فى هذا الرد إلا بعد أن أتم رحلته، وفرغ من رسم رؤياه للحياة الأخرى، كما تصورها، وكما تمثلها وشخصها .

* * *

هذا هو « أبو العلاء » حين أملى رسالته ، ولقد كان حقًّا علينا أن نقف لنقول كلمة عمَّن عرف « أبو العلاء » من الرجال فى ذلك الحين ، ومن صحبه من تلاميذ ، ومن اتصل بهم من رجال الحكم ، وهى كلمة تطول حتمًا إذا شئنا أن نتبين أثر كل منهم فى شخصيته العقلية والفنية أو الاجتماعية ، لولا أن موضوع بحثنا مخصص لرسالة الغفران ، فلنحاول الآن أن نعرض جملة الأمر فى وصف عام للبيئة الأدبية حول « الغفران » وصاحبها ، بعد تحديد زمانها ومكانها قدر المستطاع .

* * *

فمتى أمليت الرسالة ؟

الأقدمون لم يُحاولوا تحديد زمنها ، ولعلهم لو حاولوا ذلك ، لكانت المحاولة هنا مرجوة ، إن لم يكن على وجه التحديد فعلى وجه التقريب . فنصّ طويل كالغفران ، أملاه أديب مفكر كأبى العلاء ، شديد التنبه للحياة من حوله ، واضح الانفعال بها ، قوى الشعور بما يجرى فيها ، نص كهذا لا يخلو من إشارات ترشد الباحث وتمده بأسباب الترجيح القوى ، إن لم تصل به إلى اليقين ؛ وبخاصة إذا عرفنا أن آثار أبى العلاء قلما يخلو أثر منها من إشارة إلى تاريخ إملائه .

ومعرفة زمن الرسالة لم تكلفنى أكثر من قراءة متنبهة ، لفتتنى منها قول « أبى العلاء » فى « الغفران » حين تحدث عمَّن يدّعون أن علم الغيب قد كُشِف لهم :

[ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة ، أن أمير حلب – حرسها الله – فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان بن فلان ، وصفته كذا ، فإن ادعى ذلك مُدعٍ فإنما هو متخرص كاذب] .

يستفاد من هذه العبارة أن الرسالة كانت تكتب عام ٤٢٤هـ ، وآنس إلى هذا الاستنتاج قولُ « ابن القارح » فى رسالته إلى « أبى العلاء » :

« وكيف أشكو من قاتنى وعالنى نيفًا وسبعين سنة » . وقد ولد « ابن القارح » – فيما ذكر ياقوت – فى السنة الأولى بعد منتصف القـرن الرابع ، فعبارته هنا نص على أن رسالته كُتبت بين عامى ٤٢٢هـ و ٤٢٤هـ ، حيث يكون عمره نيفًا وسبعين سنة .

* * *

وقد وقف بعض الدارسين – قبلنا – عند عبارة « الغفران » التى نقلناها هنا ، فاستعجل وأخذ منها أكثر مما تعطى . بأن ذهب إلى أن رسالة الغفران كتبت فى تلك السنة . وقد سبق « نيكلسون » إلى هذا الاستنتاج فقال :

"The date of the Risala is fixed at 424 A.H. by the following sentence : Which occur in a passage denying the possibility of prediction".

وَنَقَلَ العبارة التى أوردناها آنفًا .

وقد نرى أن العبارة لا تتيح لنا أكثر من أن تلك الفقرة أمليت قبل عام ٤٢٤هـ ، على التحديد ، أما ما قبلها فيحتمل أن يكون « أبو العـــلاء » قد بدأ يمليه قبل عام ٤٢٣ مثلاً ، وأما ما بعدها فليس بمستبعد أن يكون قد أتم الإملاء بعد ذلك العام على نحو ما يصنع المؤلفون فى مثل هذه الرسائل التى هى كتب مطولة ، ومعلمة معارف لغوية وأدبية !

يؤنس إلى ذلك شاهد من نص الغفران ، إذ أضاع ابن القارح كتاب توبته ، فسئل : ألك شاهد بالتوبة ؟ قال : نعم ، « عبد المنعم بن عبد الكريم قاضى حلب حرسها الله أيام شبل الدولة » .

وفى (تاريخ حلب لابن العديم) أن عبد المنعم بن عبد الكريم : « ولى قضاء حلب حرسها الله – لشبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس سنة ٤٢٠هـ » .

ثم إننا لا نجد مفرًّا من التساؤل : هل أملى « أبو العلاء » رسالته مرة واحدة ، أو أملاها قطعًا وفصولاً متفرقة فى أوقات مختلفة ؟ ولسنا نملك أن نقطع فى هذا بيقين ، لكنا نستطيع أن نرجح فى اطمئنان ، أنها لم تُمْلَ مرة واحدة ، نظرًا لطولها وعوالمها المتغايرة ، وإنما أمليت فى فترات لعلها لم تكن متباعدة ، كما تقضى بذلك طبيعة التراسل .

لنا إذًا أن نقول : إن « الغفران » كانت تملى فى أخريات الربع الأول من القرن الخامس للهجرة ، حوالى سنة ٤٢٤هـ .

فأين أمليت ؟

وإذ رجح عندنا أنها كانت تملى حوالى عام ٤٢٤هـ ، فمن اليسير تعيين المكان الذى أمليت فيه . إذ الثابت من سيرة ، « أبى العلاء » أنه كان فى ذلك العهد مقيمًا فى بلده « معرة النعمان » وقد أجمعت المصادر على أنه لزم سكنه بعد منصرفه من بغداد سنة أربعمائة ، وأقام به إلى حين وفاته ، لم يبرحها فيما قال مؤرخوه إلا مرة واحدة حين خرج إلى ظاهر « المعرة » فى سفارته المشهورة ، شفيعًا لقومه لدى « صالح بن مرداس : صاحب حلب » ، لما حاصر « المعرة » وقبض على سبعين من أهلها . وهى خرجة قصيرة لم تتجاوز ظاهر « المعرة » ، وأما زمنها فقبل « الغفران » بأعوام ، إذ وقعت فى عهد « صالح بن مرداس » الذى قتل سنة ٤٢٠هـ ، وحدد بعض المؤرخين تاريخ حادثة حصاره للمعرة بسنة ٤١٧هـ .

ومن هنا نطمئن إلى القول بأن (الرسالة) أمليت فى « معرة النعمان » على التحديد ، فكيف كانت حياة « أبى العلاء » بالمعرة ، وحياة قومه والجماعة الإسلامية حين أملى « رسالته » بالمعرة ، فى أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجرى ؟

٤ – الحياة العامة عصر الغفران

آثرت أن لا أُثقل على البحث بمثل المقدمات التقليدية التى تتصدر مختلف الدراسات الأدبية والتاريخية بمعزل عن خصوصية الموضوع ، لأطل على عصر الغفران من أفق أعلى من زحام الدروب الفرعية والتفصيلات الجزئية ، ولكى يظلَّ أبو العلاء ماثلاً لى فيما أحاول أن أستبصر من أوضاع الحياة العامة عصر الغفران . وإذا كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أقرب إلى الرؤية المباشرة عن الموقع الدينى – الذى أوقن أنه أولى بالتقدمة – بدأت بالأوضاع القريبة من الرؤية المباشرة ، لتوجهنا تلقائيًّا إلى الموقع الدينى الذى يستقطبها جميعًا ، موثرًا فيها ومتأثرا بها ، يوجّه حركة الأحداث ويعطى التاريخ تفسيره ومنطقه .

الأوضاع السياسية :

أظلَّت « أبا العلاء » وقومه فى عصر « الغفران » – ونحده هنا بالربع الأول من القرن الخامس ماضين بالحوادث إلى مناشئها المباشرة فيما يقرب من ربع قرن – أظلتهم دولة ذات شعوب متنافرة متناكرة ، لا تربطها عواطف متحدة ، ولا مشاعر متجانسة ، وإنما هى أخلاط من عناصر ، وأوزاع من دماء ، وأوشاب من ألوان ، دولة ممزقة الأوصال ، منتهبة الأطراف ، تعانى انهيارًا فى شتى أقاليمها . وفى الحق أن التمزق لم يكن جديدًا عن الدولة الإسلامية فى ذلك العصر وحده ، فقد شهدت من قبل انفصال أطرافها وتعدد دويلاتها ، لكنه كان فى أول عهده مظهرًا من مظاهر القوة الإقليمية والاستقلال الذاتى ، والتمرد على السلطان المركزى . وأما فى عصر الغفران – أو قبله بقليل – فهو يأخذ مظهر انهيار عام لم تشهد الدولة الإسلامية له مثيلاً منذ صارت دولة المشرق الكبرى .

لم يكن ما قبلُ ضعفًا عامًّا ، بل تجاذب القوى المتعارضة ، وتشادّ العناصر المتنافرة ، فى دولة تتقسمها أهواء دينية وأوضاع اقتصادية ، وتتقابل فيها قوة بغداد ، مع قوة الأمراء فى عواصم الدولة الواسعة : حلب ، أو القاهرة ، أو قرطبة ، فكان ما يوصف بأنه انهيار للسلطان العام فى قلب الدولة الإسلامية ، يعوضه ما يشبه ازدهار السلطان الإقليمى الخاص فى أطرافها ، لكن هذه الأطراف ما لبثت أن سرى فيها الضعف ، ودب إليها الفساد ، وصارت إلى تحلل بطىء .

وأحتاج هنا إلى استطراد يسير ، فالذين يؤرخون انحلال الدولة الإسلامية بظهور الدويلات الإقليمية لا يفرقون بين العهد الذى كان ظهورها فيه نتيجة لقوة الأطراف ، والعهد الذى انهارت فيه هذه الأطراف أيضًا وتمزقت من هنا ومن هناك . لقد قسموا العصر العباسى قسمين : الأول منهما عصر القوة ، من قيام الدولة العباسية إلى مقتل « المتوكل » ، والثانى عصر الضعف ، حيث أظلّت الدولة الإسلامية : « دولة الديلم ببغداد ، والعلويين بطبرستان ، والسامانية فيما وراء النهر ، وآل سبكتكين فى الهند وأفغانستان ، والحمدانية فى الجزيرة ، وآل الإخشيد بمصر — وقبلهم الطولونيون — ثم الدولة الفاطمية بإفريقية »[1] .

رأوا هذا مظهرَ ضعف ، لأن المسلمين « فى ذلك العصر لم تكن لهم دولة جامعة ، ولم يظلهم علم واحد »[2] ثم راحوا يتحدثون عمّا يستلزمه هذا الانقسام من تفرق القوة وانتشارها ، ويعدون ما تؤدى إليه تلك الحالة السيئة من نتائج منكرة .

ولعلنا لو جاوزنا هذه الدائرة المركزية المحدودة لجاز أن نتردد فى الحكم بأن حركة استقلال الأطراف فى القرن الرابع كانت مظهر ضعف عام وانهيار شامل ، ولانتظرنا بهذا الحكم حتى مستهل القرن الخامس أو قبله بقليل ، حين بدأ الضعف يسرى فى الأطراف نفسها ، ولم يكن لسلطان بغداد قوة تعين على إنقاذ الأطراف ، وأقرب مثل لما نشير إليه هنا ، إمارة « سيف الدولة » بحلب ، وصفها أستاذنا الدكتور طه حسين ؛ فقال :

« اتخذها لملكه حاضرة ، وجعلها من أكبر مدن المسلمين وأوسعها فنًّا ، ومن أرحبها للعلم دارًا ، وأوطئها للأدب كنفًا ، ومن أحسنها فى حماية الدين بلاء ، وأشدها فى قتال الروم غناء »[3] .

ومع ذلك فقد سمى الأستاذ الدكتور ، العصرَ الذى أظل ذلك الأمير وإمارته العظيمة ، عصرَ انهيار سياسى عام شامل ، فقال : « إن الحياة السياسية للمسلمين ذهبت ريحها حين لم يبق من الخلفاء إلا الأسماء »[4] .

قلت : لئن صح هذا بالنسبة إلى الخلافة المركزية فى بغداد ، فإنه لا يصح بالنسبة إلى الدويلات الناشئة نفسها ، وإن عصرًا شهد قيام الحمدانية فى حلب ، والطولونية ثم الإخشيدية فى مصر ، والأموية فى الأندلس ، والبويهية فى فارس ، لا يسهل التسليم بأنه عصر اضمحلال خالص وانهيار شامل ، وإن سلمنا بأنه ليس عصر تركيز للسلطان العام ، بل عصر تمزيق للقوة المركزية ببغداد ، وقوة فى الأطراف .

(١) الدكتور طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ، ص ٤٨ .
(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ، ص ٤٨ — ٥٠ .
(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء ، ص ٤٨ — ٥٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٩ و ٤٥ .

وكان من الممكن – لو ساعفت الظروف – أن تتكون فى ظل الاتحاد الإسلامى دول قوية مستقلة ، تكون حركات الاستقلال للحكم المحلى فيها ، مظهر نمو يشبه إلى حد بعيد ، ما يكون من نماء طبيعى بالانقسام ، حيث تنفصل أفراد الكائن الحى عن أصلها حين تبلغ مبلغ النضج وتدرك من النمو حظًا يعينها على التفرد بشئونها ، ويؤهلها لحمل أعباء الحياة المستقلة ، لكن جناح الدولة المركزية كان فى ذلك الحين أقصر من أن يظل هذه الأطراف المتباعدة ، كما أن سلطان « بغداد » كان أوهن وأوهى من أن يجمع ذاك الشتات المنتثر !

هنا يسأل سائل : فَلِمَ لَمْ تمض هذه الإمارات فى حركتها وتستكمل قوتها وتقر سلطانها آمنة من ناحية « بغداد » ؟ وجوابنا عن هذا : أن الظروف فرضت على تلك الإمارات أن تظل مرتبطة بمركز الخلافة . حرصًا من هذه الدويلات الناشئة على الاحتفاظ بالمظهر الدينى لقيادة الجماهير المحكومة ، واقتضى ارتباطها الاسمى بخليفة المسلمين أن يهيىء لها من الاطمئنان والحرية ما يجعلها تفرغ لشئونها وتنهض بحمل أعباء الملك المستقل ، واحتمال تبعاته .

كانت دولاً مستقلة فى ظاهر الأمر ، ولكنها فى حقيقة الواقع كانت تخضع لسلطة دينية مركزية صارت إلى خلفاء ضعاف مهازيل ، يتحكم فيهم الموالى ويلعب بهم الجند الغلاظ ، ويُسيرهم نسوة وخدم ذوو نفوذ قاهر غالب ، كان من أقوى ما صنع تاريخ الحياة السياسية للمسلمين فى ذلك العهد .

ولقد زاد من قسوة الواقع أن الملوك والأمراء الأشداء فى الأطراف ، عزَّ عليهم التخلص من الارتباط بخلفائهم الضعاف ، إذ كانوا يلتمسون سند عروشهم من سيد ذى صفة دينية ، هو فى الواقع محكوم مستضعف ، ويطلبون لإماراتهم الفتية أنفاسَ الحياة من مريض ، مشدودين إلى عاصمة الخلافة ؛ وقد كانت فى ذلك العصر : ملهى الجند ، وميدان الطامحين ، ومرمى الثائرين ، ومرتزق المغامرين .

لقد كان الخلفاء فى تلك الفترة ، على ضعفهم ، أقوياء بحكم مركزهم الدينى : لا يملك مَلك إلا بأسمائهم ، ولا تقام صلاة جمعة فى جامع إلاّ مع الدعاء لهم ، ولا تُتداول عملة إلا أن تكون مضروبة باسمهم ، فإن تمرد والٍ أو أمير على هذا السلطان أو ذاك ، فهو أمام شعبه آبق .

هكذا كانت القوى موزعة بين الخلفاء والأمراء : للأولين القوة الدينية بهيبة شرعيتها ، وسلطانها التقليدى الموروث على نفوس العامة ؛ وللآخرين قوة السيف والرمح ، تبلغ بهم مركز الإمارة وتغريهم بالطموح إلى الاستقلال ، لكنها تضعف فى الوقت نفسه عن اقتحام حصن الشرعية العتيدة الراسخة .

وأكثر المؤرخين يعدون سلطان « بغداد » فى ذلك الحين اسميًّا مظهريًّا ، ويصفون استقلال الأطراف بأنه استقلال ذاتى لا يربطه ببغداد سوى مظاهر اسمية ، غير أنى أراه استقلالا اسميًّا مظهريًّا يخضع فى حقيقة الأمر لسلطان شرعىٍّ قاهر ، وإن بدا الأمر فى ظاهره على عكس ذاك ؛

فإن الأمير على قوته التى كانت تنزع به إلى الاستقلال ، لم يكن ليستطيع التخلص من التبعية للخليفة والارتباط به ، والتماس الحق الشرعى من يده ، مهما تكن يدًا ضعيفة لا تقوى على حمل عصا أو رفع سوط .

ومن ثم كانت الثورات الإقليمية – سواء أقام بها قادة طامحون ، أم أفراد وجماعات من الثائرين – قصيرة الأجل ، محدودة المجال ، تنشأ نشأة طبيعية ، أثرًا للطغيان أو شعورًا بالقوة ، أو اختلاسًا للسلطان ، وتغذيها عناصر جامحة واسعة الآمال بعيدة المطامع ، ثم لا تلبث أن تصطدم بالسلطان التقليدى لبغداد ، فتعتبط دون أن تبلغ مداها .

وفى الحق أنَّ هناك نفرًا من الحكام تفادوا الاصطدام بتلك الصخرة فتظاهروا بالخضوع لسلطانها الدينى كى يستغلوه لدعم سلطتهم الإقليمية ، هؤلاء كانوا يعرفون أثر الدين فى النفوس ، ويقدرون سلطانه العتيد عليها ، فاتخذوا من صلتهم ببغداد وسيلة لإثارة انفعال جماهير الشعوب والتأثير عليها ، وسخروا الشعور الدينى لإخضاع الجماهير واستهوائها ، وكسب طاعتها والظفر برضاها . بل إن منهم من رأى نقل « الخليفة » إلى عاصمة إقليمية ليقوم فى ملكه مظهرًا دينيًّا يسترضى الشعوب .

* * *

لكن هذه السياسة لم يكن لتعيش إلا بقدر ما يعيش الأمير الحاكم ، فإذا مات وخَلَفَه ذرية ضعاف ، ضاع التدبير بعد أعوام قد تُعَد بالعشرات ، وأى شىء هى فى أعمار الدول ، بل فى أعمار الأسر الحاكمة نفسها ؟

هذه دولة سيف الدولة ، وقد كان لها من القوة ما كان ، اجتمع ببابها – فيما روى صاحب « اليتيمة » – مالم يجتمع بباب أحد من الملوك ، ثم لم يكد أميرها يمضى حتى انقرضت ، ولم يملك منها بعده سوى اثنين : ابنه سعد الدولة ، وولده أبى الفضائل .

وتلك دولة الإخشيديين ، بدأت قوية طامحة كما نعرف ، ثم انقرضت بعد حفنة من السنين ، لم تبلغ أربعين عامًا .

ومن هنا أُتِيَتْ تلك الدويلات الفتية الناشئة التى بلغت من القوة الإقليمية ما كان جديرًا بأن يحمى الملك الذى انتزعته بحد السيف ، ويثبت العروش التى أقامتها فوق أسنة الرماح : فكل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير إذا ضمن سكوت الخليفة أو السلطان ، وما أرخص هذا وما أيسره !

وكل مظهر من مظاهر الضعف فى أمراء الأقاليم ، يعالجه الأقوياء الطامحون – من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم – بضربة باترة شافية ، ثم يلتمسون من الخليفة أن يبارك هذه الفعلة الطيبة !

وكل عرش يموت أميره عن وريث صغير أو ضعيف ، تتطاول إليه الأعناق الشاعرة بفضل قوة ، ولا على القوى أن يطأ رءوس الورثة ، ويدوس على جثث الزملاء ، فإن الخليفة فى بغداد يستطيع أن يتوج المجد المغتصب ويؤيده بصك شرعى كريم ، وإن بُنى على أشلاء الضحايا .

* * *

هذه واحدة . وأخرى أهم وأخطر ، هى أن تلك الإمارات لم تكن وراءها – فى الغالب الأعم – شعوب قوية متكاتفة تؤمن بأميرها وتبارك جهاده وتسنده فى نضاله ، وتؤيده فى سعيه نحو التفرد والاستقلال ، بل لم تكن ثمة رابطة تربطها به من اتحاد العواطف وتجانس المشاعر ووحدة المقاصد ، فما أكثر ما كان الأمير أجنبيًّا عنها غريبًا عليها ، يفد واليًا من قبل الخليفة أو مولى فى ركاب الوالى ، ثم لا يلبث أن يُطمعه ضعف الخليفة أو السلطان ، فيبدأ فى العمل لحسابه الخاص . ولم تكن الفرصة تتاح طويلا كى تقر أسرة على عرش ، وتمزج الأمير بالرعية ، وتربطهما جميعًا بروابط عملية من اتفاق المصالح واتحاد المنافع ووحدة المصاير .

* * *

نحن الآن ندنو من القرن الخامس ، وعروش الأقاليم تهتز تحت ضربات التنافس والتحاسد والتقاطع ، وتترنح من أثر لطمات الدس والمكر والكيد ، مضى الأمراء الأولون الذين أقاموها بسيوفهم ، وورثها خلف مترف ضعيف ، لم تكن لهم قوة السيف ، ولا كانت تحمى ظهورَهم حقوق شرعية أصيلة تعترف بها الخلافة الحاكمة ، أو قوة شعبية تسندهم فى الأزمات .

نحن أمام بوادر ضعف عام وانهيار فى شتى أقطار العالم الإسلامى :

ففى « بغداد » : قلب الدولة ، يضعف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها[1] ، وتطمع فيهم العامة ، ويكثر المفسدون فى الأرض ، ويشغب الجند على « سلطان الدولة » ، فينحدر إلى « واسط » مستخلفًا أخاه ، ثم يقتتل الأخوان ويفر سلطان الدولة إلى الأهواز ، تاركًا بغداد لشغب الجند وعبث العامة .

والظاهرة المؤلمة هنا ، هى ما سماه المؤرخون : « خلو بغداد من السلطان » مع قيام الخليفة بها ، بل إن الخليفة نفسه يستنجد بمن ينهض بأعباء السلطنة ليحد من فوضى « النهب والفتن فيها لخلوها من السلطان » . قال أبو الفداء فى تاريخه :

« وفى سنة ٤١٧ هـ ، تسلط الأتراك فى بغداد فأكثروا مصادرات الناس ، وعظم الخطب ، وزاد الشر ، ودخل فى الطمع العامة والعيارون ، بسبب خلو بغداد من السلطان ..

« وفى سنة ٤١٨ هـ ، سار جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد بأمر الخليفة ، لما حصل من النهب والفتن ببغداد لخلوها من السلطان ، فدخلها فى الثالث من

(١) أبو الفداء : المختصر فى تاريخ أخبار البشر – حوادث سنة ٤١٨ هـ .

رمضان وخرج « القادر » لملتقاه . على أن جلال الدولة لم يمكث فى سلطته طويلا ، إذ ما لبثت الفتنة أن قامت ببغداد بين السنيين والشيعة (عام ٤٢٢ هـ) ، وعاد الجند إلى شغبهم ، فأخرجوا السلطان من ملكه ، ونهبوا داره عام ٤٣٣ هـ ، وهو العام الذى يمكن أن تكون (رسالة الغفران) بدأت تُملىَ فيه بعده بقليل .

* * *

وفى فارس ، فى المشرق الآسيوى ، تلوح لنا تلك الساحة الواسعة من العالم الإسلامى مخضبة بالدماء ، ففى ناحية منها نرى[1] الحرب ناشبة بين ابن « سلطان الدولة » – وكان على الأهواز – وبين عمه « أبى الفوارس قوام الدولة : ملك كرمان » ، فينتصر الابن ثم يهزم ثم ينتصر ، والبلد تصلى نارَ الفتنة والحرب .

وفى ناحية أخرى ، نرى جند الرى تشغب على صاحبها « مجد الدولة البويهى » لاشتغاله بالنساء ومطالعة الكتب ، فلما شكا جنده إلى « يمين الدولة محمود بن سبكتكين » ، أنكر عجزه وضعفه ، وبعث إليه عسكرًا ، لا ليعينه على جنده ، وإنما ليقبض عليه ، وضُمَّت الرى إلى مملكة محمود عام ٤٢٠ هـ[2] .

لكن الموت غال « يمين الدولة » بعد ذلك بعام واحد ، فانطفأ ذلك النجم الذى سطع وسط الظلام ، وختمت صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد والجهاد .

* * *

وفى ناحية غير هاتين ، نشهد ظاهرة الاستعا نة بالأجنبى الذى يتربص بفريسته ينتهز فرصة مواتية لالتهامها : فقد استولى « أبو نصر بن مروان صاحب ديار بكر » على « حَرَّان » وجهز مَن قتل « عطيرًا النميرى صاحب الرها » ، فتوسط « صالح بن مرداس » سنة ٤١٦ هـ ، وأعطى نصف المدينة لابن « عطير » المقتول ، فإذا بهذا الابن يراسل ملك الروم ويبيعه حصته من الرها ، وعدة قرى أخرى بعشرين ألف دينار . قالوا[3] : « فهرب أبو نصر – صاحب النصف الثانى – واستولى الروم عليها جميعًا ، ودخلوها عام ٤٢١ هـ ، فقتلوا المسلمين وخربوا مساجدها » .

بعد عام واحد[4] يصالح « ابن وثاب النميرى » الروم على « حران » ويحمل إليهم خراجها عام ٤٢٢هـ ، ونحن ندنو من الوقت الذى تملى فيه « رسالة الغفران » .

* * *

(١) ابن الأثير ، وأبو الفدا – حوادث سنة ٤١٥ هـ .
(٢) ابن الأثير ، وأبو الفدا – حوادث سنة ٤٢٠ هـ
(٣) المصدر نفسه – حوادث سنة ٤٢١ هـ .
(٤) المصدر السابق – حوادث عام ٤٢٢ هـ .

وفى الأندلس أقصى المغرب : شهد مطلع القرن الخامس أفول شمس الخلافة الأموية فى الغرب ، وسقوط دولتها وتمزق حواضرها بين ملوك الطوائف ، وتصدع بنيانها إيذانًا بحتم النهاية الفاجعة[1] .

ونسمع « ابن رشيق » ينشد فى مرارة – وقد استنهضه « ابن شرف » على العودة إلى الأندلس[2] :

مما يُزهدنى فى أرض أندلس سماع مُقتدر فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة فى غير مملكة كالهرّ يحكى انتفاخًا صولةَ الأسدِ

وفى اليمن بأقصى الجنوب : لا تكاد تمضى بضعة أعوام من القرن الخامس ، حتى نشهد المأساة الفاجعة لانتقال ملك اليمن من « آل زياد » إلى سلسلة من عبيدهم : كان الأمر قد آل إلى طفل من « آل زياد » فكفلته عمة له ، وعبدٌ اسمه « مرجان » ، وكان للعبد « مرجان » هذا ، عبدان من عبيد الحبشة ، هما « نفيس ونجاح » ، تنافسا على الوزارة فمال مولاهما إلى نفيس . وقد شكا له أن عمة الملك تكاتب « نجاحًا » وتميل إليه ، فقبض عليها وعلى الملك الطفل ، ودفع بهما أسيرين إلى « نفيس » ، فبنى عليهما جدارًا وهما قائمان يناشدانه الله حتى ختمه عليهما ، فزالت دولة بنى زياد باليمن (٢٠٤هـ :٤٠٩ هـ) وانتقلت إلى عبيد عبيدهم .

« تملك نفيس ، وركب بالمظلة ، وضرب السكة باسمه ، فسار إليه نجاح ، وجرت بينهما عدة وقائع انتهت بقتل نفيس عام ٤١٢هـ ، ثم التفت نجاح إلى مولاه مرجان يسأله : ما فعل نفيس بمواليك وموالينا ؟ فأجاب : هم فى ذلك الجدار . فأخرج نجاح جثتيهما ، وصلى عليهما وبنى لهما مشهدًا ، ووضع مرجانَ فى موضعهما وبنى عليه حيًّا ، ومعه جثة نفيس .

« وركب نجاح بالمظلة ، وضربت السكة باسمه ، وخوطب بالملك وبمولانا »[3] .

* * *

هذه هى بعض الأحداث فى قلب الدولة وأطرافها ، وأما فى « حلب » نفسها – وهى حاضرة الإقليم الذى تقع فيه معرة النعمان مهد الغفران – فقد كتب عليها فى ذلك العهد أن تطوى الصفحات البيض التى كتبها « سيف الدولة » بجهاده وبطولته ، وتضع بعدها صفحات مشئومة سودًا ، مكتوبة بالتخاذل والهزيمة والتمزق ، واستجداء المعونة من الروم ، عدو العرب الذين أمضى « سيف الدولة » حياته يجاهدهم ويدفعهم عن مملكة العرب والإسلام .

وينتهى ذلك الملك العريض الشامخ إلى « أبى الفضائل » حفيد سيف الدولة عام ٣٨١هـ،

(١) أبو مروان ، ابن حيان : المقتبس .
(٢) رسائل البلغاء ، ص ٢٣٦ ط القاهرة سنة ١٩١٣م .
(٣) نجم الدين عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ١٠ وما بعدها – ط أوربا .

فيسلبه إياه « أبو نصر بن لؤلؤ » أحد موالى أبيه « سعد الدولة » ، فيثب عليه مولاه « فتح » ويعتصم فى قلعة حلب ويستولى عليها ، ويكاتب الحاكم العلوى بمصر فيعطيه صيدا وبيروت ، على حين يسير « ابن لؤلؤ » إلى أنطاكية – وهى للروم – فيقيم معهم بها . وتظل حلب تنتقل من يد إلى يد ، حتى يغزوها « صالح بن مرداس » عام ٤١٤هـ ، ويستقر بها بضع سنوات ، ثم ينفذ إليه « الظاهر العلوى » جيشًا عام ٤٢٠ هـ ، فيقتله ويقتل ولده الأصغر ، ويرسل رأسيهما إلى مصر .

وفى عام ٤٢٢ هـ ، وإذ نحن ندخل فى صميم عصر الغفرانَ ، نرى الروم يسيرون إلى حلب ومعهم « حسان بن مفرّج الطائى » – وكان قد هرب إليهم حين هزمه عسكر « الظاهر العلوى » على الأردن وما بعدها – وعلى رأس الأمير العربى علم فيه صليب ، ومن حوله جند الروم يدخلون حلب ظافرين منتقمين ، ليذيقوا أهلها أهوال القتل والأسر وذل السباء .

* * *

حدث كل هذا وأكثر منه على مسمع من « أبى العلاء » قبيل إملائه « الغفران » ، وقد سلخ ستين عامًا من عمره ، يشرف من عزلته على ذاك الضجيج اللاغب والصراع المحموم ، ويرى – وهو فى كمال نضجه وذروة وعيه – انتقال الدولة من هؤلاء إلى أولئك ، ونوازل الاضطراب التى تتبع مثل هذا الانتقال وتعصف بأخلاق الناس عصفها بأرواحهم وأموالهم .

من ثم نفهم لماذا زهد « أبو العلاء » فى أمجاد السياسة وأبرأ منها عالمه الآخر ؟ إذ تفسر لنا رفضه فساد الأوضاع ، أن أخراه كانت حرامًا على رجال السياسة والحكم ، لم يدخلها منهم أحد ؟

باستثناء موقف واحد من مواقف الحشر ، ذكر فيه « أبو العلاء » الملوك والحكام فى عالمه الآخر[1] .

* * *

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

ولن نحتاج بعد هذا إلى إطالة الحديث عمَّا بلغته الحياة من سوء فى مجتمع كهذا ، طبقى متصدع ، الثروة فيه تتبع القوة التى يستأثر بها آحاد معدودون ، والحركات العلمية لم يقصد بها تحقيق « فريضة العلم على كل مسلم ومسلمة » ، ولا رفع مستوى الشعب ثقافيًّا ، وإنما كان ذلك كله بقدر ما يتم للحاكم الفردى المستبد من مظهرية الدولة وأبهة البلاط ، والعناية فيه موجهة إلى ما يجرى عُرفهم بالاستكثار منه ، والحقوق الاجتماعية لبشرية الناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل الأقوياء يأكلون الضعفاء ؛ ولهذا آثاره فى خلقيتهم الفردية والعامة ، وفى

(١) رسالة الغفران – تحقيق الدارسة : ص ٢٤٧ . ط ثامنة – ذخائر .

نظرتهم إلى الحياة ، وشيوع التشاؤم الأسود واليأس المطبق ، أو المجون الفاحش واللهو العابث .

ويمكن القول فى طمأنينة من أسباب أغلب الثورات التى شهدها المجتمع الإسلامى وقتئذ ، كان هذا الإحباط والبؤس والرق ، في مجتمع ممزق مرقّع .

ونجم عن سوء الحالة الاقتصادية ، أمراض نعرفها فى سوء النظرة للحياة ، وانتظار المباغتات وفواجع القدر ، والتقلب وعدم استقرار الحياة فى الرؤية العامة .

وظهر سوء الخلقية الفردية فيما شاع من الرياء والنفاق والكذب والخداع ، والنفعية والوصولية ، كما ظهر سوء الخلقية العامة ، فى تحلل الوحدة وفشو الأنانية ، والتداعى لعمل غير صالح ، أو عمل صالح غير موجود بتاتًا .

فنحن أمام مجتمع امتصت قواه عناصرُ الفساد التى دبت فيه من زمن ، وعوامل التحلل التى ظلت أمدًا تعمل فيه عملها .

نحن أمام شتات واهٍ منتثر ، لا يعرف وحدة يلتقى حولها منذ أمسى خليطًا لا امتزاج فيه ، وبددًا لا وحدة له ، تتداعى فى داخله شعوب شتى ، وتتصادم فيه مذاهب متناكرة ، وتتقابل فيه قوى متناحرة : عرب وعجم وترك ، وأخلاط من ألوان وعصبيات ، يتداولون الحكم ويتنازعون السلطان ، وليس ثمة فى هذا المجتمع العريض تقاليد مرعية ولا معنى اجتماعى مستقر . وإنما هو تنازع عارٍ على السلطان والجاه والثروة ، يبلغه خليط من هؤلاء وهؤلاء ، ويدركه من يدركه بالقوة أو المكر أو الاغتصاب ، ويدعيه من يدعيه باسم السيف ، أو الدين ، أو العصبة الغالبة .

وندع هذا ، لنلتفت إلى :

الحياة الدينية :

فنراها متأثرة بالحياة السياسية والاجتماعية التعسة ، مؤثرة فيها ، لتعطى التاريخ تفسيره ومنطقه . قد يغلب على الظن – بعد الذى ذكرناه آنفًا عن ذلك السلطان الدينى الذى عرفناه فى حديثنا عن السياسة قاهرًا على ضعفه ، غالبًا مع وهنه ، يبسط حكومته على الأقاليم ، ويفرض طاعته على الأمراء والملوك – أقول : قد يغلب على الظن أن ذلك السلطان قد حَمَى الجانب الدينى فى تلك الحياة الفاسدة ، من الضعف والوهن ، لكنه فى الواقع كان يحمل فى ثناياه عوامل الوهن . ذلك أن التدين لم يكن فى مجتمع العصر ذا قيم ثابتة ، أو معنى باق كريم ، وإنما صار إلى لون مذهبى تؤثر عليه الأعراض الطارئة على المناخ العام فى الدولة الواسعة ، ويتغير بتغير الأسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تتغير وتتبدل !

وتمتد جذور هذا الفساد الدينى إلى أغوار بعيدة منذ انهارت ، بسقوط الدولة الأموية ،

العصبية العربية التى تداعى بها العرب حينًا من الدهر أمام تيار الشعوبية الجارفة ، فراح الحكام يلتمسون وسيلة إلى نفوس المحكومين بعد أن غلبوا عليهم بدعاوى دينية ، حلت محل العصبية العربية الأولى . وقد اختلطت العصبيتان أول الأمر فى انتساب الخلفاء العرب إلى هذا الفرع من بيت النبوة ، أو ذاك ، كالذى رأيناه فى الأسرة العربية الكبرى التى حكمت باسم « العباس » عم النبى ﷺ ، وكانت تحمى عربيتها بدينية جديدة لم تظهر فى أسرة بنى أمية التى حكمت باسم العصبية العربية الخالصة . فلما قُضى على العصبية العربية العرقية فى البيت العباسى بعهد المأمون ، ظهرت الدينية فى صور شتى وألوان مختلفة متنوعة ، ونجمت هنا وهناك — فى ذلك الملك العريض — طوائف تتداعى بمزاعم دينية ، بعضها زائف ، وبعضها دخيل ، وبدأ صراع تتقابل فيه مذاهب شتى : تُحلّ وتُحرِّم ، وتلتمس لنفسها حقوقًا شرعية ومزايا خاصة .

وقبل إملاء الغفران بأعوام طوال ظهر فى الحياة الإسلامية كثير من المقالات والمذهبيات الدينية : يحارب بعضها بعضًا ، وينكر بعضها بعضًا . وبين هذه جميعًا نجم أدعياء ومُدَّعون ، ومتألهون ومُتنبِّئون ، ودجاجلة وكذابون ، ومرتزقة ومتجرون ، وماج العالم الإسلامى بالتيارات الصاخبة المتدافعة ، وغدت أساليب النضال من كل نوع تدعى الصفة الدينية ، وتحمل شعار العقيدة ، فإذا سلاح الدين يختلط فى الميدان بأسلحة السياسة ، وأسلحة الاقتصاد ، وأسلحة الأحزاب والطبقات ، لا تميزه عنها حرمةٌ مقررة ، ولا يفرده منها معنى ثابت أو قيمة ذاتية باقية لا تتغير بتغير الحكام .

هل نسوق مثلا وشاهدًا ؟

لقد جاء عهد « الغفران » إثر استقرار الدولة الفاطمية التى أقامت ملكها على أساس من عصبية مذهبية دينية دعت إليها فى قوة وعنف ، ثم لم يكد القرن الخامس يهل حتى شهد نفرًا من أعلام الدولة ببغداد ، يُشغلون بالقدح فى نسب الأسرة الحاكمة بمصر ، كبرى حواضر الإسلام إذ ذاك ، وقد سُجل محضر القدح ببغداد عام ٤٠٢هـ ، تستطيع أن تقرأ نصه وأسماء الأعلام الذين اشتركوا فيه ، فى (تاريخ الإسلام للذهبى ، والكامل لابن الأثير ، والمختصر لأبى الفدا) : حوادث ذلك العام .

وقدِّرْ هنا ما يكون فى هذا من قدح وطعن وسباب ، وما ينال الدينَ والخلقَ والخلافة ، من النقع المثار من المعركة ، ثم قَدِّرْ ما تنكشف عنه أمام عيون الجماهير المحكومة باسم الدين !

ثم جاوز هذا قليلا ، وامضِ لتشهد ذاك الملك العريض الشامخ الذى أقامته الدعوة الفاطمية ، واسمع منابر المساجد الإسلامية فى مصر وتونس ، وفى الشام والحجاز — بل فى بغداد نفسها — كما حدث من فتنة البساسيرى فى صميم عصر الغفـران — تمجد المذهب الجديد ، وتؤذِّن

بـ « حيّ على خير العمل » وتدعو للأئمة الطاهرين من آل فاطمة ، رضوان الله عليهم ، وتتهم معارضيهم بالمروق والكفر .

تسمع هذا ، فتكاد تحسب أن أصول المذهب الفاطمى قد استقرت ، وأن أركانه قد ثبتت ، فلا عليه بعد ذاك إن مَضَى حاكم أو مات داع ، أو طعن فى نسَبه عدو .

لكنك إذا تابعت مشاهدة مسرح الأحداث بعد عهد « الغفران » رأيت المذهب الفاطمى الذى أقام مثل تلك الدولة القوية الحاكمة ، يتقوض وينهار حين مضى دعاته الأقوياء ، فخمدت الدعوة التى ظُن أنها لن تخمد ، وغدا اعتناقها كفرًا ومعصية ، وعُدّ هدمُها جهادًا فى سبيل الله ! وهذه قيثارة الزمن التى أنشدت للمعز الفاطمى العُبيدى :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكـــم فأنت الواحـــد القهار

تغنى للأيوبيين بعد قرن من الزمان :

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى عبيدٍ بمصر؟ إن هذا هو الفضل !
زنـــادقة ، شـــيعيـــة ، باطنيـــة مجوس، وما فى الصالحين لهم أصل

بل هذا شاعر الأيوبيين يمجد جهادهم فى تطهير الإسلام من الروافض أدعياء الفاطمية :

وقد دنستْ منها المنابرَ عصبةٌ يعاف التقى والدينُ منهم ويأنف

هكذا يُمسى كفرًا ودنسًا ومعصية ، ما كان بالأمس إيمانًا وطهرًا وطاعة ، بل هكذا تقوم المذاهب الدينية فى ذلك المعترك على غير أساس من قيم معنوية ثابتة ، فهى مثل سواها هدف التجريح والامتهان ، وهى كغيرها من المذاهب تخمل بخمول دعاتها ، وتوطأ بالأقدام ساعةَ ينزلون عن عروشهم ، لا حرمةَ لها تُبقى عليها ، ولا سندَ لها من مُثُل وقيم ثابتة ، يحميها من المصير التعس .

* * *

أين كانت حلب من هذا الشتات الممزق المنتثر ؟ وأين كان « أبو العلاء » فى ذلك الخضم المائج بشتى التيارات ؟

أما حلب :

فقد كانت من كبريات حواضر الشام ، والشام من قديم الزمان يقف بين العوالم المتدافعة ، والأمواج المتنافرة : هو فى الجاهلية بين العرب والروم واليونان والفرس ، وهو فى العصر الإسلامى بين الحجاز والعراق ، وهو هنا — فى عصر الغفران — بين العباسيين والفاطميين .

فى هذا الملتقى المضطرب كانت تصطدم الآراء المتناقضة والأهواء المتعارضة ، وهو حائر لا يدرى إلى أى الجانبين يميل ، وإلى أى الفريقين ينحاز ، وقد سمع الشام من هؤلاء وهؤلاء ،

ما زهَّد الصفوة من رجاله فى هؤلاء وهؤلاء ، وأثار فيهم الريب والشكوك فى قيم الأخلاق ، وفى صحة هذه الدعاوى الدينية التى كانت تتصادم عنده .

ولعل هذا يفسر لنا – إلى حدّ ما – موقفه من الأحزاب الدينية التى جعلت الدين وسيلتها إلى الحكم ، فقد رأى منذ الزمان الأول أن تفسير الدين تحدده المصالح الشخصية والاعتبارات الطائفية :

إلى الشام أوى الأمويون قديمًا ، بعيدًا عن آل على وبنى طالب وبنى الزبير ، وفيه أقاموا دولتهم على الرغم من هؤلاء جميعًا ، ولهم فى ذلك المجتمع المقام الدينى الأول ، وبهم تحف أضواء باهرة من أكرم بيت فى قريش .

هكذا كان الشام من قديم الزمان ، فإذا دنا عصر « الغفران » فاليوم شبيه بالأمس : إنه واقع بين قوى ذلك العالم المائج الذى صورناه من قريب ، بين السلطتين المتنازعتين :

ينظر عن يمين فإذا العراق غير بعيد منه يميد ويضطرم ، شغله الشاغل محاربة العلويين وقتال الخوارج ، والكيد للفاطميين .

وينظر عن يسار فإذا مصر قريبة ، بل واصلة إليه ، حاكمة فيه ، همُّها الأكبر تجريح بنى العباس وهدم ملكهم .

* * *

و « أبو العلاء » يتنفس فى هذا الجو ، وعلى بابه تصطخب الأمواج . ولقد ولد فى صميم المعركة ، سنةَ أقيمت الدعوة بالحرمين « للمُعِز العبيدى » وقطعت خطبة بنى العباس . وحدث قبل مولده بثلاث سنوات أن اصطدم المذهبان فى « دمشق » وكانت الجولة الأولى بين « العبيدين » وبين « أبى القاسم محمد بن يعلى الشريف » ، ثم كانت الجولة الثانية بعد أيام ، بين « أبى القاسم » وبين عسكر الفاطميين .

كانت الموجتان تصطخبان على باب أبى العلاء ، وهو منطوٍ على همومه ، منعزل ، متجرد للعبادة والتأمل ، تأتيه رسل هؤلاء وأنباء أولئك .

الفاطميون هنا يصيحون : إن بنى العم غصَبوا ميراث « فاطمة » بنت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ونقلوا الأمر من أصحابه بنى محمد عليه الصلاة والسلام إلى عمه بنى العباس .

والعباسيون هناك ، ينادون بأن الأنثى لا تكون عاصبة بنفسها ، وأن الخلافة حق لبنى العم دون الإناث :

قال شاعرهم :

أنّى يكون ، وليس ذاك بكائنٍ لبنى البنـــات وراثةُ الأعمـــام ؟ !

* * *

ومِثْل « أبى العلاء » مَن يحس هذا ويُحرج به : إلى جانبه خلافة عباسية سُنِّية قائمة ، بايعها جمهور العالم الإسلامى ، ورسَّخها فى نفوس القوم عمرٌ طويل أوشك أن يكمل قرنه الثالث .

وأمامه – بل فى دياره – خلافة فاطمية فتية قوية ، فى عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها ، قد التف حولها الناقمون الغاضبون والطامعون الطامحون ، والمرتزقة والمغامرون ، وأيدتها فى النفوس أيضًا إيحاءات غيبية وهمسات سرية ، وآمال ونذر ، ووعد ووعيد ، وحفَّت بها أضواء تنبعث من بعيد ، ناقلة عن النبى عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام ، ماوُعِد به آل البيت من رضوان ونعيم ، وتنذر من يحاربهم بحرب من الله ورسوله ، ونكال فى الآخرة أليم .

ولو أراد « أبو العلاء » أن يعفىَ نفسه من ضجيج هذه الدعوات أو تلك ، لسعت بها إلى أذنيه رسلُ القوم تأتيه من هنا وهناك ، ولحملتها كتبهم ورسائل دُعاتهم ، وتطوَّع بالحديث عنها تلاميذه الوافدون عليه من شتى أقطار العالم الإسلامى .

* * *

وإلى جانب ذلك الصراع المحتدم بين المعسكرين ، كانت أصوات أخرى تجلجل فى الأفق بصنوف من الدعاوى الغريبة والمذاهب الشاذة ، كالحلول ، والتناسخ ، وتأليه البشر ، وكانت آراء فى الدين تذاع فى جرأة رهيبة ، فيصغى إليها إصغاءَ المتعب ، ولا يسلم من غبارها وأذاها . ولقد عَفَّر الغبارُ قبله أسماء لامعة فى التاريخ الإسلامى ، وشخصيات بارزة من مفكريه ، لصقت بهم أوصاف مذهبية وسِمات طائفية . وبيان هذا مما يقف عنده مؤرخ الحياة الدينية ، ونفرغ للنظر فى :

أثر هذه الحياة الدينية فى الغفران :

فإذا هو أمامنا ظاهر واضح ماثل شاخص ، لا تخطئه النظرة الأولى . ولقد لمح « آدم متز » بعض هذا الأثر فقال : « ومما يؤسف له أن ابن حزم يكاد يسكت عن الإسماعيلية سكوتًا تامًّا يدعو إلى الاستغراب ، وكذلك سكت عنهم أبو العلاء فى رسالة الغفران إلا نادرًا ، ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذى أمسك لسانه عنهم »[1] .

وتلك لمحة عابرة ، لا نُسلِّم بها على إطلاقها ، فما كان وجود « أبى العلاء » على مقربة من طائفة ما ، سببًا فى إمساك لسانه عنهم ، وآثاره تنكر هذا وتقدم إليك حملاتٍ عنيفة على مذاهب وطوائف قريبة منه .

الذى نُسلم به ، أن وجود « أبى العلاء » على مقربة من المعترك الدينى ، قد ترك أثره فى « رسالة الغفران » التى تعنينا هنا ، تلمح هذا فى اسم « الرسالة » وفى صفحاتها الأولى ، قبل أن تمضى فى القراءة ، ثم لا يزال يطالعك فى صفحاتها حتى المقطع الأخير .

(١) الحضارة الإسلامية ، ٦٠/٢ من الترجمة العربية للدكتور أبو ريدة .

فاسم «الرسالة» يُشعرك بالموضوع الذى تعالجه ، وقد عالجه بأسلوب يكشف عن عمق تأثره بفوضى الحياة الدينية فى عصره ، فإذا روَى قصة الغفران ، عرض مواكب من الشعراء تفاوتت حظوظهم من النعيم وأنصبتهم من العذاب ، فما تدرى أين يضع الله رحمته وأين يصب نقمته ؟ ثم هو ينقل لك مشهد الحشر كما تتصوره جماعات إسلامية، جاعلا لآل البيت و«على» وآله ، رضى الله عنهم ، حقوقًا فى الشفاعة ليست لسواهم[1]. ويتحدث على لسان الشاعر «تميم بن أُبيّ بن مقبل»، عَمَّا لَقِيَ جزاء اشتراكه فى قتال «علىّ» كرم الله وجهه:

« فيقول تميم : والله ما دخلت باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر ولا الرجز ، وذلك أنى حوسبت حسابًا شديدًا ، وقيل لى : كنت فيمن قاتل علىّ بن أبى طالب ، وانبرى إلىّ النجاشىُّ الحارثىّ فما أفلتُّ من اللهب حتى سَفَعَنى سَفَعاتٍ »[2].

وسترى – حينُ تتحدث عن عالمه الآخر – كيف كان يرسم صورة متأثرة بالأقوال الدينية التى كان عصره يموج بها .

وتدع رحلة الآخرة إلى القسم الثانى من « الرسالة » ، حيث جوابه عن كتاب « ابن القارح » ، فإذا حديث طويل عن الزنادقة والملحدين ، والمتنبئين والمتألهين ، يروى فيه « أبو العلاء » من أشعارهم وأخبارهم ما لعلنا لا نعرف كتابًا آخر فى أدب العربية قد رواه . ثم لا تكاد تجاوزه حتى ترى مشهدًا هزليًّا ، عن توبة « ابن القارح » ، وجلوسه للوعظ بأحد مساجد حلب ، وفى يده رمح أو خنجر يجأ به أعناق زقاق الخمر[3].

هنا وهناك ، فى مواضع شتى من (الغفران) يروى « أبو العلاء » ، فى مرارة وسخط ، أو فى تهكم وسخر ، أخبارًا عن طوائف شتى ممن « خلبوا ألباب الغوغاء وشغلوا العامة بدعاواهم العريضة » .

وما بنا الآن أن نتبع هذا ، فله مكانه فى موضعه من الدراسات الموضوعية للغفران ، وتكفينا الآن هذه الإلمامة السريعة لنعرف مدى تأثر أبى العلاء بهذه الحياة الدينية التى كان يعيش فيها ، ولنلقى بها ضوءًا على ما سوف يلقانا فى (الغفران) مما له صلة بذاك .

فإذا انتقلنا إلى :

الحياة الأدبية واللغوية والفكرية :

وجدنا أنفسنا مضطرين – قبل المضى فى بياننا لها – إلى الوقوف عندما قرره الأستاذ العميد ، الدكتور طه حسين ، من ازدهار الحياة الأدبية فى عصر « أبى العلاء » ، وهى

(١) رسالة الغفران : ص ١٧٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ط ثامنة ذخائر .

(٢) رسالة الغفران : ص ٢٤٧ ط ثامنة ذخائر .

(٣) رسالة الغفران : ص ٥١٧ – ٥٢٢ ط ثامنة ذخائر .

حياة رآها الأستاذ الكبير (وضاءة متلألئة ، لا يشبهها إلا سوء الحياة السياسية فى ذلك الحين .. (فإذا أخذ اثنان فى تأريخ العصر : أحدهما أديب والآخر سياسى ، كان استبشار الأديب وابتهاجه ، مقرونين إلى عبوس السياسى واكتئابه . ذلك يرى أعلامًا للعِلم ترفع ، وصروحًا للأدب تشاد ، وهذا يرى كلمة تتفرق ، وعصا تتشقق ، ودولة تنقض ، وبناء سياسيًّا ينهار)[1] .

والواقع أن الناظر إلى القرنين الرابع والخامس ، تبهره تلك الأسماء اللامعة للأئمة الأعلام من رجال اللغة والأدب ، وما ظنك بعصر شهد من رجال التاريخ والأدب : الخطيب البغدادى، والبديع الهمذانى ، والثعالبى ، والأصبهانى ، وابن عبد ربه ، وأبا هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ، وأبا حيان التوحيدى ، وابن النديم ، والآمدى ، والصاحب ابن عباد ، وابن قتيبة ، وابن رشيق ، وابن شرف القيروانى ، وابن حزم القرطبى ، وابن عبد البر ... ؟

وعرف من الشعراء : المتنبى ، وأبا فراس ، وأبا العلاء ، والشريف الرضى ، والتهامى ، وابن هانئ الأندلسى ، وابن زيدون ، وابن شهيد ، ومن أئمة اللغة : الأزهرى ، وابن دريد ، وابن فارس ، وابن جنى ، والجوهرى ، والسيرافى و ... ؟

بل ما ظنك بعهد خلف لنا من ذخائر العربية : كتاب الصناعتين ، وديوان المعانى ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، والوساطة ، والتهذيب ، والجمهرة ، والمجمل ، والصحاح ، والأغانى ، والعقد الفريد ، واليتيمة ، والخصائص ، والعمدة ، والإمتاع والمؤانسة ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران ، ورسالة الملائكة ، ورسالة الصاهل والشاحج ، والفصول والغايات ، واللزوميات و ... و ... ؟

أسماء لامعة دون ريب ، وثروة أدبية لاشك فى خصبها وغناها ، لكنى أخشى أن تبهرنا فنرى رأى الذين فصلوا بين الحياة السياسية والحياة الأدبية ، أو وصلوا بينهما بطريق غير منطقى ولا مألوف ، فجعلوا الأولى ، وهى منحطة منهارة ، تثمر حياة أدبية وضاءة متلألئة .

وأما نحن فلا نذهب مذهبهم ، ولا نرى الحياة الأدبية فى ذلك العصر – وفى كل عصر – إلا صورة صحيحة صادقة ، تعكسها الحياة العامة فى فنون الأدب ، كما لا نسلم بأن الحياة الأدبية قد كانت فى ذلك الحين بريئة من المرض سليمة من الضعف ، خالصة من الشر والنكر ، وهل كان من الطبيعى أن تتنفس تلك الحياة الأدبية والعلمية هكذا ، ملء الصحة والنقاء فى ذلك المناخ المريض الموبوء ؟ .

إننا لا ننكر على العصر غناه بأولئك الأعلام من رجال الأدب ، وتلك الثروة الفكرية الكبيرة ، لكنا لو عرضناهم على الموازين الضابطة للفن والحياة ، لوجدنا أن أكثرهم كانوا

(١) الدكتور طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٤٤ .

يعانون الشعر والنثر بنفوس مستغلقة غير متفتحة ، « وقلما تصف روائع الحسن فى هذا الكون من حيث ما لها من وقع على النفس أو انفعال بها . بل تصفها بقدر ما تعلم التقاليد التلقينية بما هى مرتزَق ومكتسب ، أو مظهر براعة ودليل اقتدار ، لا بما هى مُتنفَّس ومتذوَّق ، ومن هنا كان ما نشكوه من جمود الفن وسطحيته ، إذ يقف عند ظواهر الأشياء ، لايمتد بصره ولا تتطاول بصيرته إلى لبابها وجوهرها ، ولا يصغى لشىء من إيحائها ... »[1] .

ولعلك لو خليت القرن الخامس ، ونظرت إلى القرن الرابع الذى كان ينضج عصر « الغفران » ويهيئ له ويُسلم إليه ، لرأيت « المتنبى » — إمام الشعراء وأستاذهم المتبوع — يتنقل بشعره من سيف الدولة الأمير العربى ، إلى كافور الإخشيدى ، إلى عضد الدولة البويهى الفارسى ، وما عليه فى ذلك بأس ، مذ أمسى الشعر عنده مرتزقًا ومكتسبًا .

ولكن قف لحظة هنا لتراه ، فيما يروى « ابن العماد » عن صاحب « عيون السير » ينظم بمصر قصيدته :

بادٍ هواكَ صبرتَ أم لـــم تصبرا وبُكاكَ ، إن لم يجر دمعُك أو جرى

فى « أبى الفضائل جعفر بن الفرات » فلما لم يُرضه ، لم ينشده إياها ، حتى إذا توجه إلى بلاد فارس صرفها إلى « ابن العميد » ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ![2] .

ولا تعجب إذ يقول الشاعر فى اثنين من الناس :

أفدى برؤيته الأنام وحاشَ لى من أن أكون مقصّرًا أو مُقْصِرا

فما كان الشعر فى ذلك الموقف ترجمة عن إعجاب أو تعبيرًا عن تأثر ، وما يمدح الشاعر هنا بوحى العاطفة أو دفع الوجدان ، وما يصف فى الممدوح جمالاً يراه أو كمالاً يقدره ، وإنما ينظر إلى الدنيا والناس بعيون أولئك الذين جرت بأيديهم المقادير فى الأرزاق والأقوات ، ومن ثم فهو لايعالج الشعر إلامن حيث كونه مُكسِبًا للرضى ، ممكنًا من العطية، فاتحًا لخزائن أولئك الرازقين .

وما نظلم العصر وشاعره ، وإنما ننقل هنا قوله فى هذه القصيدة نفسها :

ومللتُ نَحْرَ عشـارها فأصابنى من ينحر البُدنَ النضار لمن قَرَى
نسقوا لنا نَسقَ الحســاب مُقـدَّما وأتـى بـذلك إذ أتيـتُ مؤخـرا

ويروون أن « المتنبى » أراد دخول تونس ، فخرج له « أبو الحسن بن هانىء الأندلسى » متنكرًا فى زى أعرابى فقير على راحلة هزيلة ، وأمامه شاة عجفاء ، فلقيه على مرحلة من

(١) من محاضرات أستاذنا أمين الخولى بكلية الآداب فى : « التفسير الأدبى لتاريخ مصر فى القرنين الثالث والرابع » — مخطوط .

(٢) شذرات الذهب : ٣/ ٣٢ ط القدسى .

« قابس » فسأله « المتنبي » : من أين أتيت ؟ أجاب : من عند الملك . قال : فيم كنت عنده ؟ قال : امتدحته بأبيات فأجازني هذه الشاة . فسأله : ما قلت فيه ؟ أجاب : قلت :

ضحك الزمان وكان قدمًا عابسًا ... لما فتحتَ بعزم سيفك « قابسا »
أنكحتَها بكرًا وما أمهرتها ... إلا قَنا ، وصوارمًا ، وفوارسا
من كان بالسُّمْر العوالي خاطبًا ... فتحتْ له البيض الحصونُ عرائسا

قالوا : فأمر « المتنبي » بتقويض خيامه ، وكرَّ راجعًا ، وقد آلى ألا يمتدح ملكًا هذه جائزتُه ، على مثل ذاك الشعر ![1] .

وفي هذا العصر نفسه ، نرى الشاعر يمضي بقصيدته إلى بعض هؤلاء الرازقين فيقف بالباب ذليلا مستجديًا يساوم على بضاعته من شعره .

حدثوا أن « ابن نباتة السعدي » ورد على « ابن العميد » وهو بالري ، يشدو معجبًا بالوزير العلامة ، ركن الدولة وإمام الأدب ، ويقول :

لله قلبي ما يجـ ... ـنُّ من الهموم وما يوارى !
لقد انقضى سكرُ الشبا ... ب وما انقضى وصَبُ الخُمار
. . . . . .
وإذا استهل « ابنُ العميـ ... ـد » تضاءلت دِيَمُ القطار
خُلُق صفَتْ أخلاقه ... صفوَ السبيك من النضار
فكأنما رُفدِتْ موا ... هبه بأمواج البحار
وكأن نشر حديثه ... نشرُ الخزامى والعِرارِ

قالوا : فتأخرت صلته . فشفع القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة ، فلم يزده « ابن العميد » عن الإهمال ، فتوصل إلى أن دخل عليه يوم المجلس وهو حفل بأعيان الدولة ، فوقف بين يديه وقال : أيها الرئيس ، إني لزمتك لزوم الظل ، وذللت لك ذلَّ النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظارًا لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ولكن شماتة الأعداء !

ومضى في ذلته يعتب على الأمير حتى أغضبه ، فزجره قائلاً فيما قال :

« ... وما استقدمتُك بكتاب ، ولا استدعيتك برسول ، ولا سألتك مدحي ، ولا كلفتك تقريظي » .

وخرج « ابن نباتة » – أو أُخرِجَ – مهانًا مطرودًا ، ليسمع بأذنيه وهو في صحن القصر

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣/٣٢.

قائلاً يقول : « والله إنّ سفَّ التراب والمشى على الجمر أهون من هذا . فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مَهِينًا ، ومشتريه مماكسًا فيه »[1] .

ولطالما سُمع شيخ الأندلس فى ذلك العصر ، « أبو بكر الزبيدى » – ت ٣٧٩ – ينشد :

الفقر فى أوطاننا غربة والمال فى الغربة أوطان

* * *

ودَعْ ما قبل الغفران ، وغذّ السير إلى الأيام التى ولدت هذا النص ،فإذا « ابن القارح » نفسه – وقد كان السببَ الظاهر القريب لإنشاء الغفران – يحدث عن نفسه ، فيقول فى رسالته إلى أبى العلاء[2] :

« كنت أؤدب ولدى الحسين بن جوهر القائد بمصر ، وكانا مختصين بالحاكم وأنيسين به ، فعملتَ قصيدة وسألت المسمى منهما جعفرًا – وكان من أحسن الناس وجهًا : ويقال إن الحاكم كان يميل إليه – أن يوصلها إليه ، ففعل ، وعرضها عليه فقال : يُعطَى ألف دينار .. » .

فماذا قال للحاكم فى قصيدته التى سيرَّها إليه عن هذا السبيل ؟ قال :

إن الزمان قد نضر بالحـاكم الملك الأغَرْ
بادرَ إنفـاقَ البِدَرْ بـدرٌ إذا لاح بَهَرْ

أجل هو بدر يبهر فى نظر المرتزق المتكسب ، فإذا انقطع عنه العطاء ، أسَفَّ ونضح إناؤه بأقذر القذر .

قال ابن القارح فى رسالته يهجو « أبا القاسم المغربى » وقد عاش زمانًا يمدحه :

لُقِّبْتَ بالكـامل سترًا على نقصك كالبـانى على الخص
فصرت كالكُنف إذا شيِّدت بُيِّض أعلاهـن بالجُـص
يا عـرة الدنيـا بلا غـرة ويا طُوَيْسَ الشـؤم والحـرص

* * *

إلى ذلك المنحدر ، صار بعض الفن فى عصر « الغفران » ، ونبادر فندفع شبهة توهم أننا نُحَكِّم الأخلاق فى الفن ونزنه بموازينها ، فنرفض شعر هؤلاء بما هو متعارض مع أحكام الخلق ، وإنما نرفضه بمقاييس أدبية خالصة ، ونحتكم إلى موازين الفن فيما نأخذ وندع من هذا الشعر .

نرفضه لأنا لا نراه كما يقضى الفن – وحى عاطفة ، أو نشاط وجدان . أو تعبيرًا عن

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ٢/ ٣٤ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٥ ص ٨٦ – ٨٨ ، ط دار المأمون .

شعور ، أو تسيير عاطفيًّا للحياة ، وإنما هو صناعة لفظية ، وتزييف للآراء والمشاعر ، لا يستطيع الفن أن يقبله بحال ، إذ الفنية قوة فى الشعور ، وليست ارتزاقًا بالشعور ؛ وصدق الوجدان ، وليست مساومة عليه .

* * *

لم ينجُ الأدب إذن من النكر الذى شاع فى الحياة العامة ، ولم ينفرد دون جوانب الحياة الأخرى بالسمو والرفعة واللألاء ، وإنما أصابته عدواها فإذا فيه من الشر كثير ، مع بعض خير لا نستطيع أن ننكره .

فلئن كانت هذه الحياة التى وصفنا ، تطاولت ببعض الناس وأغرتهم بالطموح إلى عالى المناصب ، واعتدلت بآخرين فأقنعتهم بالوقوف على أبواب السادة والحكام راضين بما يُلقون إليهم من فضلات موائدهم ، لقد انتهت بنفر آخرين إلى اليأس أو ما يشبه اليأس ، ودفعتهم إلى الانطواء على أنفسهم بنسب تتفاوت بتفاوت استعدادهم الطبيعى لهذا الانطواء ، وتختلف باختلاف ظروفهم الخاصة ومدى إعانتها على مثل ذاك .

فمنهم سادر فى أحلام اليقظة يعوّض بها ما فاته فى دنيا الواقع ، وآخر هائم فى متاهات الوهم وغيابات الخيال ، يلتمس العزاء عمَّا لقى من خيبة وإخفاق ، وثالث شاطح فى طريق الصوفية ، ينشد عالمًا آخر له سبل غير التى عرفتها الدنيا ، ومقاييس غير التى يتعامل بها الناس فى المعترك المائج . ورابع شارد ضال ، هو اليوم هنا ، وهو غدًا هناك ، لا يستقر به على الأرض مكان .

وإذا كنتَ تجد فى الشعر المتكسب الرخيص ، وفى الهجاء الوضيع المسفّ ، وفى العناية المسرفة بالزخرف الشكلى ، صدى الحياة الفاسدة واختلال موازينها واضطراب قِيَمها ، فإنك تجد فى أشعار الحالمين وأوهام الخائبين وشطحات الهائمين ، جراثيم الرواسب المستقرة فى أعماقهم جميعًا من هذا اليأس والتعب والحرمان ، وترى ظلال تلك الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية البائسة التى مرت بنا صورتها ، وتسمع صدى المعارك الدينية المحتدمة التى مضى الحديث عنها آنفا .

هكذا نرى الأدب فى هذا العصر قوى الاتصال بجوانب الحياة الأخرى ، ونجد فى اليأس المظلم الذى رأيناه يسود الجو العام ، مفتاح كثير من الثروة الأدبية لذلك العهد ، نفتح به باب فهمها وتفسيرها ، فندرك ما قد نجد فيها من زيف وانحطاط ، أو احتفال بالصنعة اللفظية ، ونعلل ما أفرزت من فنون يائسة أو شاكية ناقمة ، أو زاهدة تتطلع إلى الآخرة وتهرب من الأولى .

* * *

فإذا شئت أن تلتمس صورة الحياة العامة الفاسدة المضطربة فى ذلك العصر ، فلا تترك الأدب ظنًّا بأنه قد نجا من شرها ، وإنما التمسْها كذلك فى كل ما ترك لنا العصر من شعر غنائى حزين ، ومن أحلام السادرين المنطوين على أنفسهم التائهين فى غيابات الوهم والخيال ، ثم التمسها عند صُنَّاع الشعر ومحترفى الأدب ممن يفرغون للزخرف ، وينصرفون إلى التفنن فى الأشكال ، ويحسبون الفن معاناة الصنعة ، وصدى التقليد المتبع .

من هنا نرى فى إيثار « أبى العلاء » للعزلة ، صدى للفساد العام فى عصره ، وعلامة اليأس الناتج من هذا الفساد الذى عاناه الرجل وفزع منه . كما نرى فى العصر تفسير صنعته وصياغته .

ولقد قلت – ومازلت أقول – إن (رسالة الغفران) أثر فريد فى تراثنا الفنى ، ليس لأنى أبرئه من النقص أو أنزهه عن العيب ، وإنما أعجب به لأنى أرى فيه شخصية صاحبه وصورة قومه وعصره ، وأجد لديه المتعة الخالصة التى يتيحها نص قوىّ الصلة بالحياة ، صادق التصوير لعالمه ودنياه .

لقد أخذتْ (رسالة الغفران) موضعها فى آثار أبى العلاء ، وفى التراث الفنى الإنسانى بدلالتها الصادقة على نفس صاحبها ، وعلى الحياة من حوله ، فلو لم نعرف صاحبها ، لرسمت لنا منه صورة واضحة الملامح بينة السمات : لِمُفكرٍ أديب يائس معتزل ممتحَن محروم . ولو لم نعرف الزمن الذى أملى فيه « الغفران » لكانت الرسالة بحيث تجعلنا نطمئن إلى أن التفات « أبى العلاء » إلى العالم الآخر ، لا يكون إلا فى مرحلة عزلته وكهولته ، ويأسه من هذه الدنيا .

لم ينج « أبو العلاء » ، ولم ينج فنه من نكر العصر ، وفى (رسالة الغفران) ذاتها مصداق الذى قلناه من أن الأدب فى ذلك الحين – كما هو دائمًا – كان يساير الحياة العامة المضطربة ، ويتأثر بما فيها من شر . ففى القسم الأول منها ، ترى هذه الحياة قد انتهت « بأبى العلاء » إلى اليأس من الظفر فى عالم تلك مقاييسُه ووسائله ، والانطواءِ على نفسه ، والعكوف على ذاته . وتشهده فى منعزله ذاك البعيد ، سادرًا فى أحلام يقظته ، يرسم جنته كما اشتهى له حرمانه واقترحت عليه ظروفه وظروف الحياة . ولقد أتاح له ذلك الانطواء ما لم يتح لكثير غيره من الفطنة المرهفة لدقائق الكون وظواهر الحياة ، لكنه كما لم يكن لينجو من أثر هذه البيئة الضاجة من حوله ، المضطربة فى خِضَمِّ عالمه ، ومن ثم « لم[1] يكن فنه كله تأملا مستوحيًا ، واستشفافًا نافذًا ، وتقبلا للإيحاء وانفعالا به ، والتماسًا لسر الوجود وما فيه ، بل لا يلبث أن تغلبه قوة تلك الدوافع القاهرة المخذلة من بيئته ، فتراه وليعًا بالمظاهر من زخارف الحسن السطحى الشكلى » . تصغى إليه فى « الغفران » مأخوذًا بهذه العوالم التى ينقلك إليها أو ينقلها إليك ، لكنك لا تلبث أن تصطدم هنا وهناك بصخرة من سجعة نابية ، أو تتعثر بحجر من استطراد متكلف ، ولقد

(١) من محاضرات أستاذنا أمين الخولى بكلية الآداب فى : « التفسير الأدبى لتاريخ مصر فى القرنين الثالث والرابع » – مخطوط .

يبلغ من سحر حديثه أحيانًا ما يعطل شعورك بالزمان والمكان من حولك ، لكنه لا يتحرج أحيانًا كثيرة من إيقاظك فى عنف ، ليفسر لك لفظة هنا أو كلمة هناك ، ويمزق النظم ليملى عليك فصلاً لغويًّا يسرد فيه ما عرف من مشتقات هذا اللفظ أو ذاك ، وما حفظ من دلالاته .

ويعرض عليك فيما يعرض من صور (الغفران) مشاهد بارعة مثيرة ، تتأملها معجبًا مبهورًا ، لكنه لا يلبث أن يفسد رواءها بألوان صارخة من الصنعة اللفظية والزخرف الشكلى .

من ذلك مثلاً قوله بلسان ابن القارح للشاعر الجاهلى « أوس بن حجر » حين رآه فى الجحيم : « يا أوس : إن أصحابك لا يجيبون السائل ، فهل لى عندك من جواب ؟ فإنى أريد أن أسألك عن هذا البيت :

وقَارَفَتْ وهى لـــم تَجْرَبْ وباعَ لها ... مـــن الفصَـــافِص بالنُّمَّىِّ سِفْسِيرُ

فإنه فى قصيدتك التى أولها :

هل عاجـــل من متاع الحى منظور ؟ ... أم بيت دومـةَ بعد الوصـــل مهجورُ ؟

ويروى فى قصيدة « النابغة » التى أولها :

وَدِّعْ أُمَـــامةَ والتوديـــعُ تعذيـرُ ... ومـــا وداعُكَ مَنْ قَفَّتْ بـــه العِيرُ ؟

وكذلك البيت الذى قبله :

قد عُرِّيَتْ نصفَ حولٍ أشهرًا جُدُدًا ... تَسْفى على رَحْلِها فى « الحِيرَةِ » المورُ

وكذلك قولك :

إن الرحيـــلَ إلى قـــومٍ وإنْ بَعُدوا ... أمسَوا ومِـــنْ دُونهـــم ثَهَلانُ فَالنِّيرُ

وكلاكما معدود فى الفحول ، فعلى أى شىء يُحمل ذلك ؟ ..

فيقول « أوس » : قد بلغنى أن « نابغة بنى ذبيان » فى الجنة ، فاسأله عمَّا بدا لك ، فلعله يخبرك ، فإنه أجدر بأن يعى هذه الأشياء ، فأما أنا فقد ذهلت : نار توقد وبنان يعقد ، إذا غلب علىّ الظمأ رُفع لى شىء كالنهر ، فإذا اغترفتُ منه لأشرب وجدته سعيرًا مضطرمًا ، فليتنى أصبحت « دَرِمًا » – وهو الذى يقال فيه : أودى درم . وهو من بنى دُبٍّ بن مرّة بن ذُهل بن شيبان »[1] (ص ٣٣٩ – ٣٤١) .

أرأيت مثل هذا العرض الفنى الرائع لتلك المسألة الأدبية التى اختلف فيها الرواة ؟ ألست تنسَى فى هذا الحوار المثير ظروف الزمان والمكان وتحسب أنه مشهد حقيقى من مشاهد العالم الآخر ؟ لكنَّ « أبا العلاء » نفسه يفسد عليك استمتاعك بهذا المشهد ، ويصدمك – وأنت مأخوذ بما تسمع من حديث « أوس » فى قوته ومرارته – بذلك الاستطراد المعترض ، يتحدث به عن

(١) الأرقام المذيلة بها النقول من رسالة الغفران فى هذا الفصل ومايلى ، تشير إلى صفحاتها فى النص المحقق ط الذخائر الثالثة فما بعدها .

« درم » ونسبه ؛ « ولو كان هذا التفسير جاء عقب المشهد لهان أمره ، لكنه يعترض المشهد فى صميم سياقه فيمزقه بتفسير لم تَدْعُ إليه عاطفة وجدانية أو ضرورة فنية أو نشاط وجدانى ، وإنما جاءت به الصنعة التقليدية والزخرف الشكلى . فكلمة « درم » سجعة نابية جىء بها إثر « مضطرم » ، وأسلمت هذه اللفظة إلى ما بعدها من سرد جاف ممل لنسب درم ! ولو سلم فن « أبى العلاء » من نكر العصر ، لمضى فى رؤياه الملهمة واستغرق فى عالمه النفسى الخالص ، ولسلمت لنا تلك المتعة الفنية من شوائب هذا الاعتراض المقحم الثقيل ، وما أحسب القارئ بحاجة إلى أن يسأل « أبا العلاء » أن يشرح له هذه الكلمة أو تلك ، فإنك لا تسأل المصور البارع كيف أعد لوحته ، ولا تستوقف الموسيقى ليشرح لك ما يعزف من نغم .

قد يذهب الظن إلى أن مثل هذه الشروح المعترضة أُقحمت على النص ، وأنها فى الأصل كانت تذكر للتلاميذ السامعين ، وهو احتمال ناقشناه فى غير هذا المكان[1] ، لكنا – مع التسليم جدلاً بمثل هذا – نظل ننكر على « أبى العلاء » أن ينتزع نفسه من عالمه الفنى ليقطع المشهد مفسرًا لتلاميذه هذه الكلمة أو تلك .

وبحسبنا هذا المثال هنا ، فما نحصى الآن تلك المشاهد الجميلة التى أفسدها « أبو العلاء » ، ولا نبحث هنا عمَّا كان لمرانته على صناعة العبارة من أثر فى تخفيف هذا الوقر ، فمكانه يأتى بعدُ عند الحديث عن : « أسلوب الرسالة وخصائصها الفنية » .

* * *

ولأرصد هنا صدى الحياة الأدبية العامة فيما سجلته رسالة « الغفران » من رأى « لأبى العلاء » يؤيد الذى قلناه عن تأثر الأدب بتلك الحياة التى كانت تمور بالمغامرة والطمع .

يقول عن « المتنبى » :

« وَحُدِّثْتُ أنه كان إذا سُئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال : هو من النبوة : أى المرتفع من الأرض ، وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هى مقادير ، يديرها فى العلو مدير » ص ٤١٨ .

ومن حديث « الغفران » عن حرفة الأدب ، يلقيه مرة فى حوارٍ لشيخ الجن مع ابن القارح الذى بهره ما سمع من علم الجن بالشعر وبراعتهم فى نظمه ، فيقول له الجنى : « فإذا شئت أملتُك ما لا تسقه الركاب ، ولا تسعه صحف دنياك ، فيهمّ الشيخ – لازالت همته عالية – بأن يكتتب منه ، ثم يقول : لقد شقيتُ فى الدار العاجلة بجمع الأدب ولم أحْظَ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء ، فأحتلب منهم دَرَّ بكىءٍ ، وأجهد أخلافَ مَصُورٍ ، ولست بموفق إن تركتُ لذاتِ الجنة وأقبلت أنتسخ آداب الجن ، ومعى من الأدب ما هو كاف ،

(١) انظر الفصل الخاص بالشروح المعترضة فى (نظم الغفران) .

لا سيما وقد شاع النسيان فى أهل الجنة ، فصرتُ من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظًا ولله الحمد . » (٢٩٣) .

ويلقيه مرة أخرى ، بلسانه مباشرة فى مثل قوله فى الرد على ابن القارح :

« ولم يَزَل أهل الأدب يشكون الغِيَرَ فى كل جيل ، ويخصون من العجائب بسجل سجيل ، وهو يعرف الحكاية أن « مَسْلَمة بن عبد الملك » أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله وقال : إنهم أهل صناعة مجفوة ، وأحسب أنهم والحرفة خُلِقَا تَوْءَمَيْنِ ، وإنما ينجح بعضهم فى ذات الزُمَيْنِ ، ثم لا يَلْبَثُ أَنْ تَزِلَّ قدمه ، ويتفرَّى بالقَدَر أُدَمُه» (٤١٠) .

« ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن ، فقد أودعَ شرابه فى شَنٍّ غير ثقةٍ على الوديعة ، بل هى منه فى صاحب خديعة » (٤١١) .

ويلقيه مرة ثالثة على لسان « إبليس » فى السعير ، حين يقول « لابن القارح » : « مَن الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب ، كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك ، فيقول « إبليس » : بئس الصناعة ، إنها تهب غُفَّةً من العيش لا يتسع بها العيال ، وإنها لَمَزَلَّةٌ بالقَدَم ، وكم أهلكتْ مثلَك ! » (٣٠٩) .

ويقوله رابعة على لسان حميد بن ثور : « ولقد كان الرجل منا يُعمل فِكره السنة أو الأشهر ، فى الرجل قد آتاه الله الشرف والمال ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فَعَطَاءٌه زهيد » (٢٦٧) .

بل لماذا لا نقول إن أبا العلاء نفسه ، يقدم لنا ، فى حياته وسلوكه وفنه ، الشاهدَ الناطق بمدى ما كان يلحق الأديب إذا لم يجار التيار ويُلق بدلوه فى الدلاء ؟ أوَلم يعتزل الحياة العامة — قبل أن يكتب الغفران — حين لم يطق أوضاعها ؟ أوَلم يؤب إلى داره فى المعرة بعد أن أيقن ألاَّ مكان له هناك فى بغداد ، وقد أعوزته الوسيلة إلى خوضِ معركة يفقد فيها الأديب نفسه إذا أراد أن يعيش ؟

فإلى الذين يرتابون فى فساد الحياة الأدبية فى عصر أبى العلاء ، نقدم لهم من أبى العلاء نفسه المثل والشاهد والدليل ، ونضع أمامهم ذلك الأثر الأدبى الذى أنتجته حياة عامة ، عز فيها على صاحب الغفران أن يجد فيها موضعًا ؛ ولنذكرهم بأن أبا العلاء هو القائل فى اللزوميات :

فِرَقًا شعرتُ بأنهـا لا تقتنى خيرًا وأن شِرارهـا شعراؤها

* * *

بَنى الآداب غرتكم قديمًا زخارفُ مثلُ زمزمة الذباب
ومَا شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسباب

وهو – كذلك – القائل بعد تجربته المرة ، ذلك البيت الذى يمثل مأساته ومأساة كل أديب يواجه محنة الصراع بين مبادئه وأوضاع الحياة من حوله :

هذى بضـــاع العالم معروضة فخالطـوا العـــالم أو فارقـوا

ومعه قوله فى اللزوم :

هذا زمان ليس فى أهله إلا لأن تهجـره أهـلُ

حان رحيلُ النفس عـن عـالم مـا هو إلا الغـدر والجهـل

وقوله :

ووجدُت نفس الحر تجعل كفَّه صفرًا ، وتلزمه بمـا لا يلزم

* * *